الدكتور عبد العزيز الدوري

العصر العباسي الأول

دراسة في التاريخ السياسي والاداري والمالي

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

بيروت ـ لبنان
ص. ب ١١١٨١٣
تلفون ٣١٤٦٥٩
فاكس ٣٠٩٤٧٠ ـ ٩٦١١

الطبعة الأولى
منشورات دار المعلمين العالية ـ بغداد ١٩٤٥
الطبعة الثانية
حزيران (يونيو) ١٩٨٨
الطبعة الثالثة
شباط (فبراير) ١٩٩٧

الجغرافي العظيم المقدسي (كتب بين ٩٨٥ ـ ٩٩٧م) الى المبيضة قائلاً: وبرساتيق هيطل (قرب بخارا) أقوام لهم بيض الثياب، مذاهبهم تقارب مذاهب الزندقة[١] ويتكلم البغدادي (المتوفى سنة ١٠٣٧ م) عن المقنعية إذ يقول «وأتباعه «المقنع» اليوم في جبال إيلاق (في ما وراء النهر) أكرة أهلها»[٢] ويبين البيروني (المتوفى سنة ١٠٤٨م) أن أتباع المقنع «بما وراء النهر يدينون بدينه (أي المقنع) مستخفين منتحلين في الظاهر للاسلام[٣] ويفهم من ابن العبري (المتوفى سنة ١٢٨٦م) أن المبيضة كانوا موجودين في بلاد ما وراء النهر في القرن الثالث عشر وأنهم ينتظرون عودة المقنع[٤].

٤ ـ المهدي والبيزنطيون

وسار المهدي على خطة والده في الاهتمام بتحصين الحدود، ويقول البلاذري «لما استخلف المهدي استتم ما كان بقي من المدن والحصون وزاد في شحنها»[٥] وأبدى نشاطاً في إرسال الحملات ضد البيزنطيين.

ففي سنة ١٥٩ هـ (٧٧٦م) أرسل ليون الرابع حملة ضد سميساط فأسرت كثيراً من الأسرى. فبعث الخليفة حملة قوية تغلغلت في الأراضي البيزنطية حتى وصلت انقرة ولكنها لم تفتحها[٦].

وفي سنة ١٦٢ هـ/ ٧٧٩م تقدم البيزنطيون على الحدث وخربوا سورها واستمروا في التخريب حتى قرب الحدود السورية. فغزا الصائفة الحسن بن قحطبة في نفس السنة بجيش من ثلاثين ألف مرتزق من العراق والحجاز» وسار من جهة طرسوس فأكثر التخريب والتدمير في بلاد الروم دون أن يفتح حصناً[٧]. وفي السنة ١٦٣ هـ/ ٧٨٠م قرر الخليفة أن يسير بنفسه، فجهز حملة جمع فيها الجند من مختلف انحاء الامبراطورية، وأقام نحواً من شهرين يتهيأ. ثم سار بصحبة ابنه هارون الى الحدث عن طريق حلب. وكان الحسن بن قحطبة قد أشار عليه بتحصين طرسوس وشحنها بالمقاتلة لأهميتها العسكرية في الحرب مع البيزنطيين، ولكن الخليفة أمره أن يبدأ بمدينة الحدث، فبنيت (وتم بناؤها سنة ٧٨٥م). وتقدم المهدي الى (البستان Arabissus) ثم رجع تاركاً القيادة لابنه هارون، فسار الأمير

---

(١) المقدسي ـ أحسن التقاسيم الى معرفة الأقاليم ص ٣٢٣.
(٢) الفرق بين الفرق ص ٢٤٤ ـ ٥.
(٣) البيروني ص ٢١١.
(٤) ابن العبري ص ٢١٨.
(٥) البلاذري ـ ص ١٧٦.
(٦) Cambridge Medieval History. vol. II. P. 123.
(٧) البلاذري ص ١٧٦، الطبري ج ١٠ ص ٣٤٢، ابن الأثير ج ٦ ص ٣٩.

الى حصن (سمالو) وحاصره ثمانياً وثلاثين ليلة سلمت بعدها الحامية. وبعد هذه الحملة احتل العرب طرسوس وحصنوها بأمر الخليفة[1].

وفي هذه السنة توفي ليون فحكمت زوجته أغسطة Irene كوصية على ابنها الصغير قسطنطين. وفي سنة ١٦٤ هـ قاد الصائفة عبد الكبير فردته الجيوش البيزنطية بقيادة ميخائيل M. Lachandoraco، فغضب الخليفة على عبد الكبير لجبنه وسجنه. وجهز في السنة التالية (١٦٥هـ / ٧٨٢م) حملة قوية (من ٩٥,٧٩٣ جندي) بقيادة الأمير هارون يصحبه الربيع بن يونس وكانت في الجيش فرق من الشام والجزيرة وخراسان وبلاد العرب. فافتتح هارون حصن (ماجدة) وتقدم حتى البوسفور واضطر الامبراطورة أغسطة الى طلب الصلح. فعقدت هدنة بين الطرفين لمدة ثلاث سنوات على أن تدفع الأمبراطورة جزية سنوية مقدارها تسعون أو سبعون ألف دينار وأن تجهز الجيش بالادلاء وتسهل له التموين في طريق الرجعة. ثم حصّن هارون المصيصة وزاد في حاميتها.

وكانت غنائم المسلمين من هذه الغزوة عظيمة حتى بيع البغل باقل من عشرة دراهم والدرع بأقل من درهم وعشرين سيفاً بدرهم. وقد قال مروان بن أبي حفصة يخاطب الرشيد:

أطفت بقسطنطينة الروم مسنداً ... إليها القنى حتى اكتسى الذل سورها
وما رمتها حتى أتتك ملوكها ... بجزيتها والحرب تغلي قدورها[1]

ويظهر أن البيزنطيين نقضوا الصلح سنة ١٦٨هـ/ ٧٨٥م فاستمرت الحرب دون جدوى حتى وفاة المهدي.

٥ ـ الاداريات

أ ـ كان عهد المهدي عهد استقرار سياسي وإداري، وقد أصاب ابن الطقطقي في قوله «وفي أيامه ظهرت أبهة الوزارة[2]. إذ كان الخليفة يعطي وزراءه سلطة واسعة. فقد استوزر أبي عبيدالله بن يسار (١٥٩ ـ ١٦٣هـ) الذي كان كاتبه ونائبه قبل الخلافة[3] «وفوض إليه تدبير المملكة وسلم إليه الدواوين»[4] ثم استوزر بعده يعقوب بن داوود فسماه (أخاً في الله ووزيراً وأخرج بذلك توقيعات تثبت في الدواوين»[5] وفوض الأمور إليه[6]

---

(١) الطبري ج ١٠ ص ٣٤٢ ـ ٥، ابن الاثير ج ٦ ص ٤٠ ـ ١، البلاذري ص ١٧٦.

(١) الطبري ج ١٠ ص ٣٤٦، ابن الاثير ج ٦ ص ١٤ و C. M. H. Vol. II. p. 125

(٢) الفخري ص ١٣٣.

(٣) الجهشياري ص ١٤٦.

(٤) الفخري ص ١٣٤.

(٥) الجهشياري ص ١٥٥.

(٦) المسعودي ج ٧ ص ١٣٦.

للعباسيين لأنها تضعف كيان أعدائهم أهل الشام. ولكنهم من الجهة الأخرى لم يرتاحوا إليها تماماً لأنها تخل بسلطة الدولة وتهدد الأمن والمواصلات.

وقد ثارت العصبية بين المضرية واليمانية بقوة سنة ١٧٦هـ، فأرسل الرشيد موسى ابن يحيى بن خالد الى الشام، فهدأها وأصلح بين أهلها[١]. ولكن الاضطراب تكرر ولعل الرشيد أهمله مدة ليضعف شأوة الخصوم، ولكنه بلغ درجة عنيفة سنة ١٨٠ هـ، فأرسل جعفراً البرمكي ليهدئه، مما يدل على خطورته. واستعمل جعفر الترغيب والارهاب[٢] «فأصلح بينهم وقتل زواقيلهم والمتلصصة منهم ولم يدع بها رمحاً ولا فرساً فعادوا الى الأمن والطمأنينة»[٣].

٣ ـ السياسة الخارجية:

(أ) علاقة الرشيد بالبيزنطيين

أضفت حروب الرشيد مع البيزنطيين بهاء خاصاً على عصره، فهي من مآثر حكمه ورمز بطولته كجندي مجاهد. وقد اعارها الخليفة أهمية خاصة لا لفائدتها المادية لأن الخسائر في النفوس والأموال كانت تتجاوز كل نفع، بل للعظمة التي تلقيها على حكمه، ولأنها تظهر سطوة الاسلام وعناية خليفته بحرب أعدائه.

ولم تكن هذه الحرب تسير لهدف معين ولا تتبع خطة رشيدة، بل كانت غزوات انتهت دون أن تغير موقف الطرفين، ومن يستقرئها لا يرى فيها خطة لفتح منظم أو استيلاء دائم بل كان الخليفة يكتفي بأخذ الجزية. وكل ما نستنتجه منها هو أنها اثبتت تفوق العرب الحربي، ثم قصر نظر قوادهم في عدم متابعة الضغط على البيزنطيين وعدم إدراكهم لظروف أعدائهم الحرجة.

ومع ذلك فقد اهتم الرشيد بتنظيم حدوده المواجهة للبيزنطيين وبتحصينها. ففي سنة ١٧٠هـ فصل الثغور الشامية عن الجزيرة وسماها «العواصم» وجعلها منطقة عسكرية خاصة قاعدتها منبج، واهتم بتحصينها، وعمر مدينة طرسوس الشهيرة[٤]. وكان قصده من ذلك خلق وحدة عسكرية قوية من حدود سورية الشمالية. ويقول البلاذري «قال معاوية بن عمرو: وقد رأينا من اجتهاد أمير المؤمنين هارون في الغزو ونفاذ بصيرته في الجهاد أمراً

---

(١) لطبري ج ١٠ ص ٦٠.
(٢) نظر خطاب جعفر في الجهشياري ص ٢٠٨ ـ ٩.
(٣) لطبري ج ١٠ ص ٦٦.
(٤) لطبري ج ١٠ ص ٥٠.

عظيماً، أقام من الصناعة ما لم يقم قبله وقسم الأموال في الثغور والسواحل»[1]. ولعل الرشيد اعتنى بالأسطول أكثر من أسلافه ويتضح هذا من الحركات البحرية فى خلافته.

كانت المناوشات مع البيزنطيين تحدث في كل عام تقريباً، ولم تكن متساوية في الأهمية، ولذا فسنكتفي بالاشارة إلى المهم منها.

ففي سنة ٧٩٠م (١٧٤هـ) أسر الروم بعض الجند الذين أبحروا من مصر الى سورية، فتحرك أسطول عربي من مصر إلى قبرص ومنها إلى آسيا الصغرى، والتقى بالأسطول البيزنطي في خليج Attalia، فهزمه واسر أمير البحر البيزنطي[2].

وفي سنة ٧٩٧م (١٨١ ـ ٢هـ) غزا الرشيد بنفسه أرض البيزنطيين، فسار قسطنطين السادس (ابن ايريني) ضده، ولكن Stauracius حليف ايريني خاف أن يقوى مركز قسطنطين ان انتصر فأشاع أن المسلمين تراجعوا، فرجع قسطنطين الى عاصمته، وكانت النتيجة ان خلع وسملت عيناه واعتلت أمه ايريني العرش (يسميها المؤرخون العرب ريني) باسم أغسطة. وفي نفس الوقت فتح الرشيد حصن الصفصاف، وتقدم عبد الملك بن صالح فبلغ أنقرة وافتتح (مطمورة) ورفض طلب ايريني للصلح[3].

وفي سنة ١٨١هـ حصل أول فداء في العصر العباسي بين المسلمين والروم، وكان المتولي له القاسم بن الرشيد، أما عدد الأسرى المسلمين فبلغ حوالي ثلاثة آلاف وسبعمائة[4].

وبعد سنتين هجم الخزر على أرمينيا، فقبل الرشيد طلب ايريني للصلح ودفع الجزية. واستمر الوضع على ذلك حتى أوائل سنة ١٨٧م (٨٠٢هـ) حين دبرت مؤامرة ضد ايريني فخلعت واعتلى نقفور العرش[5].

وبينما كان نقفور منشغلاً بثورة داخلية (٨٠٢م) تقدم القاسم بن الرشيد الذي عين تلك السنة أميراً للعواصم، فحاصر حصن قرة (Corum) وحاصرت إحدى فرقة حصن سنان، ولكن قلة الماء والزاد جعلته يرضى بالتراجع مقابل إطلاق البيزنطيين ثلاثمائة وعشرين أسيراً[6].

ولم يكتف نقفور[7] بقطع الجزية بل أرسل رسالة الى الرشيد جاء فيها «من نقفور ملك الروم الى هارون ملك العرب، أما بعد فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ وأقامت

(١) البلاذري ـ فتوح ص ١٦٨.
(٢) C. M. H. Vol. IV p. 125
(٣) شرحه والطبري ج ١٠ ص ٦٩ ـ ٧٠.
(٤) ابن الأثير ج ١٠ ص ٣٥
(٥) C.M.H. Vol. IV p. 126.
(٦) شرحه، وابن الأثير ج ٦ ص ٦٠
(٧) الطبري ج ١٠ ص ٩٤.

نفسها مقام البيدق فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثاله إليهـا، لكن ضعف النساء وحمقهن. فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلك من أموالها وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك وإلا فالسيف بيننا وبينك». فغضب الرشيد جداً وكان جوابه يدل على اعتزازه بقوته وعلى نظرته للبيـزنطيين، إذ أنـه دعا بـدواة فكتب على ظهر تلك الرسـالة «بسم الله الرحمن الرحيم من هارون أمير المؤمنين الى نقفور كلب الروم، قـد قرأت كتـابك يـا ابن الكافرة والجواب ما تراه دون أن تسمعه والسلام».

وتقـدم الرشيد بنفسـه (في نيسان ٨٠٤م/١٨٧هـ) الى هـرقلة واحتلت بعض فرق جيشه حصن الصفصاف ودبسة وأخذت مقدمته أنقرة، فجاء نقفور لصده فدحر. ولعل تأخر الموسم جعل الرشيد يقبل الهدنة والجزية، وعلى أن لا يبني نقفور الحصون المهدومة[١]. وكان مقدار الجزية ديناراً عن كل حالم من الروم سوى نقفور وابنه[٢]. ولما رجع الرشيـد استغل نقفور شدة البرد فنقض الصلح، فرجع إليه الرشيد وقمعه واتفق على تبادل الأسرى ويظهر أن ذلك وقع في أوائل سنة ١٨٩هـ، «فلم يبق بأرض الروم مسلم الأفودي به»[٣].

وفي سنة ٨٠٥م (١٨٩هـ) استغل نقفور انشغال الخليفة بشؤون إيران، فخالف بنود الصلح وبنى أنقرة ودبسة والصفصاف، وأرسل جيشاً فتح طرسوس وخرب عين زربة (Anzarabus) ولكن حامية المصيصة هاجمته واسترجعت معظم الأسرى والأسلاب[٤].

فجاء الرشيد سنة ١٩٠هـ (٨٠٦م) بجيش ضخم يقدره الطبـري بـ «مائـة وخمسة وثلاثين ألف مرتزق سوى الأتباع وسوى المطوعة وسوى من لا ديوان له» وكانت فيه فرق من مختلف ولايات المملكة. فعبر الحدود البيزنطيـة في (١١ حزيـران) وأخذ هـرقلة (بعد حصار شهر) والطوانة Tyana حيث أمر ببناء مسجد، وافتتح قواده حصن الصقالبة ودبسة وحصن الصفصاف وملقوبية وسنان وصملة وحصن ذي الكلاع (Sideropolis). وكان نقفور آنئذ مهدداً من جانب البلغار فأرسل وفـداً يلتمس الصلح، فرضي الرشيـد على أن يدفـع نقفور جزية قدرها ثلثمائة الف دينار وان يدفع جزية شخصية عنه (٤ دنانير سنـوياً) وعن ابنه (دينارين سنوياً) وبذلك اعترف بأنه تحت ذمة الخليفة. واشترط الرشيد عليه أن لا يبني حصناً كما تعهد أن يرجع صملة وذا الكلاع وحصن سنان سالمة[٥].

وكان الرشيد قد ولى حميد بن معيوف سواحل البحر الأبيض. فأبحر حميد بأسطوله سنة ٨٠٥م إلى قبرص فدمر فيها وسبى من أهلها ستة عشر ألفاً بينهم الأسقف وأقدمهم الرافقة، ولكنهم أرجعوا إلى قبرص بعد تجديد الصلح سنة ٨٠٦م. كما قـام حميد بغـارة

---

(١) الطبري ج ١٠ ص ٩٤، و C. M. H. Vol. IV p. 126.

(٢) الجهشياري ص ٢٠٧.

(٣) الطبري ج ١٠ ص ٩٧.

(٤) C. M. H. Vol. IV p. 126، الطبري ج ١٠ ص ٩٩.

(٥) نفس المصادر.

بحرية على رودس في السنة التالية.

ولكن نقفور نقض الصلح على عادته مستغلاً إنشغال الرشيد بخراسان، فتجددت الحرب دون نتيجة تذكر.

وفي سنة ١٩٢هـ (٨٠٨م) كان الفداء بالبدندون Podandus[١].

ج ـ هل حصلت صلات بين الرشيد وبين الهند والصين.

كان العرب على اتصال بالصين والهند وقد زاد ذلك في عصر الرشيد لتفشي الترف في المجتمع وتوسع حركة التجارة، فساعد ذلك على توسع شهرة العرب وإعلاء إسم خليفتهم. ولعل هذا يفسر لنا ما نسمع به من صلات سياسية بين الرشيد وبين الهند والصين.

يحدثنا ابن عبد ربه[٢] عن وفد من أحد ملوك الهند إلى الرشيد يحمل هدايا من «سيوف قلعية وكلاب سيورية وثياب من الهند وان الرشيد لم تعجبه إلا الكلاب السيورية أما بقية الهدايا فلم تكن إلا عادية بنظره» وأن الرشيد أكرم وفادتهم «ثم أمر بتحف كثيرة وأحسن جائزتهم به» وقد تصح هذه الرواية، ولكن فيها نص يثبت ضعفها، وهو أن الرشيد «لما أتته الرسل بالهدية أمر الأتراك فصفوا صفين ولبسوا الحديد حتى لا يرى منهم إلا الحدق، وأذن للرسل فدخلوا عليه»، ونحن نعرف أن اصطناع الأتراك بهذه الدرجة لم يحصل إلا في خلافة المعتصم.

وتشير التواريخ الصينية إلى ذهاب عدة سفارات عربية إلى البلاط الصيني في القرن السابع والثامن للميلاد مرسلة من (Han- Mi Mo- Mini) أي أمير المؤمنين أبي العباس (A-bu- lo- ba) ومن أبي جعفر المنصور (A-pu Ch'a- fo) ومن هارون الرشيد (A-lun) وهي تذكر ثلاثة وفود أرسلها الرشيد وصل أحدها سنة ٧٩٨م[٣].

ولكني أرى أن هذه الوفود كان يرسلها تجار العرب مع هدايا طريفة إلى البلاط لرفع مكانتهم، ويحدثنا المسعودي عن حصول سفارة من هذا القبيل في القرن التاسع الميلادي. ويجب أن نتذكر أنه كانت في بعض موانىء الصين الكبيرة مثل كانتون جاليات تجارية عربية فارسية تدير شؤونها بنفسها تحت إشراف السلطات الصينية[٤].

ب ـ الصلات بين هارون الرشيد وشارلمان:

تخلو المصادر الشرقية، إسلامية ومسيحية من الإشارة إلى أية صلة بين الرشيد

---

(١) الطبري ج ١٠ ص ١٠٠، ص ١٠٩ و C. M. H. Vol. IV p. 127

(٢) العقد الفريد ج ١ ص ٢٦١ ـ ٢.

(٣) عن علاقة العرب بالصينيين انظر Chau Ju-Kua (Petersburg 1911)
Berstschneider - Medieval Researches (London 1937) Vol. I p. 264-5

ويسمي الصينيون العرب Ta-shi وهي عن الفارسية القديمة Tazi محرفة عن طائي.

(٤) انظر قصة سليمان التاجر، في Chau Ju-kua وقد بحثت هذا الموضوع في رسالتي للدكتوراه ببعض التفصيل.

وشارلمان وتنفرد المصادر اللاتينية بذلك، ولكنها مضطربة وغامضة. فلا غرابة إن وجدنا تبلبل الكتّاب الغربيين ولجوءهم إلى الخيال لتفسير تلك الصلات. ولكنهم جميعاً (عدا بارتولد) يقررون صحتها ثم يختلفون في تفسير نتائجها.

تذكر المصادر اللاتينية (وهي حياة شارلمان لاينهارد، والأخبار الملكية ورواية الراهب سنت كول) أن شارلمان أرسل وفدين إلى الرشيد (سنة ٧٩٧م وسنة ٨٠٢م) ورسولاً إلى بطريق القدس (سنة ٧٩٩م)، فأجاب الرشيد بإرسال وفدين (سنة ٨٠١م وسنة ٨٠٧م)، بينما أرسل بطارقة القدس أربع سفارات على الأقل إلى شارلمان (سنة ٧٩٩م، سنة ٨٠٠م، وسنة ٨٠٣م، وسنة ٨٠٧م) وكان شارلمان هو البادىء بالمراسلة مع الرشيد.

ففي سنة ٧٩٧م أوفد شارلمان وفداً من ثلاثة: لانتفريد وسجسموند يصحبهما يهودي اسمه إسحق مترجماً وقضى الوفد في مهمته ثلاث سنوات توفي أثناءها الممثلان الأولان ورجع إسحق وحده مع فيل في سنة ٨٠٢م.

وفي سنة ٨٠١م (أي قبل وصول إسحق) جاء وفد إسلامي إلى بلاط شارلمان وكان يتألف من إثنين أحدهما فارسي عن الخليفة والثاني مغربي عن إبراهيم بن الأغلب، وأخبرا شارلمان برجوع إسحق مع فيل وهدايا.

وبينما كانت سفارة سنة ٧٩٧م في الشرق حصل تبادل هدايا وصلات ودية بين بطريق القدس وشارلمان وكان البادىء بها هو البطريق إذا أرسل إلى شارلمان راهباً يحمل هدايا رمزية، ولما رجع ذلك الراهب أرسل شارلمان معه القسيس زكريا يحمل هبات إلى الأراضي المقدسة. وفي كانون الأول سنة ٨٠٠م رجع زكريا إلى المغرب يصحبه راهبان عن بطريق القدس يحملان إلى شارلمان مفاتيح كنيسة القيامة ومفاتيح مدينة القدس وراية.

وفي سنة ٨٠٢م أرسل شارلمان وفده الثاني إلى الخليفة، وتشير الأخبار الملكية إلى هذا الوفد دون بيان مهمته. بينما يذكر إينهارد Einhard في كتابه (حياة شارلمان Vita Caroli) أن السفراء أخذوا هبات لكنيسة القيامة ثم ذهبوا إلى الرشيد، «وعندما عرض السفراء رغبات سيدهم على الرشيد أجابها، وفضلاً عن ذلك أوكل (الخليفة) إليه (شارلمان) أمر الأماكن المقدسة» ولكن هلفن Halphen محقق كتاب أينهارد يرى أنه لا يمكن الوثوق بمعلومات ذلك المؤرخ الذي كان همه تفخيم إسم سيده. وعلى كل فقد رجع هذا الوفد سنة ٨٠٦م. وفي خلال غيابه أرسل بطريق القدس جرجيس راهبين إلى شارلمان وصلا سنة ٨٠٣م ولكن مهمتهما غير معروفة ولا دليل على أن شارلمان رد على رسالتهما.

وفي أوائل سنة ٨٠٧م وصل بلاط شارلمان رسول عن الخليفة (يدعى عبدالله) وراهبان عن البطريق توماس. وكان مع رسول الخليفة هدايا نفيسة (صيوان ملون بديع وأقمشة حريرية وعطور وبلسم وساعة مائية عجيبة وأوانٍ نحاسية. ويرى جورنسن Joranson أنه لا دليل على أن ممثل الخليفة والراهبين أرسلوا لنفس المهمة إذ أن المصادر اللاتينية تميز بين البعثتين.

أما العوامل التي دعت الى إنشاء العلاقات (كما يراها الغربيون) فهي متعددة منها رغبة شارلمان في فتح الأندلس وحاجته الى تأييد الخليفة المعنوي لئلا يقف عرب الأندلس في وجهه كعدو للاسلام كما فعلوا سنة ٧٧٨م حين هاجم شمال الأندلس وفشل. ثم الخلاف بين شارلمان والبيزنطيين حول وراثة تاج الدولة الرومانية، ويزيد الأمر تعقيداً العداء بين البابا وبين بطريق القسطنطينية على السيادة الروحية للعالم المسيحي، ورغبة البابا (حليف شارلمان) بتقوية صلاته مع بطارقة الاسكندرية وأنطاكية والقدس ليقفوا بجانبه. ثم رغبة شارلمان في تسهيل الحج الى الأراضي المقدسة وفي تكوين نفوذ معنوي له في تلك البقاع.

أما مصالح الرشيد فهي ناتجة في زعمهم عن خصومته مع البيزنطيين ورغبته في القضاء على نفوذهم المعنوي بين مسيحيي الشام والجزيرة بتقوية صلاتهم بالغرب؛ ثم عدائه لأمويي الأندلس ورغبته في بسط سيادته عليهم(١).

وقبل أن نذكر تأويلات الغربيين لنتائج هذه الوفود، وهي تأويلات بنوها على التخمين غالباً، نذكر بعض الشكوك التي تساورنا في التفاصيل المذكورة والتي تجعلنا نميل لنفي وجود صلات سياسية.

فقبل كل شيء يكتنف المصادر اللاتينية الأولية غموض واضطراب، فالمصدر الأول المعاصر، وهو «الأخبار الملكية» Annales Regni Francorum مقتضب لا يساعد على تعيين الصلات، بينما قصد اينهارد في كتابه «سيرة شارلمان» تفخيم سيده ورفع اسمه، وفي الكتاب أخطاء كثيرة ولا يعتمد عليه. أما الراهب سنت كول St. Gall فهو من كتّاب الأساطير(٢). وقد اعتبر الأستاذ بارتولد هذه النقطة مع سكوت المصادر العربية حجة كافية لنفي وجود الصلات(٣).

ثم يظهر لي أن الباحثين فهموا ظروف شارلمان، ولم يفهموا وضع الرشيد وهل كان يستوجب فتح صلات من هذا القبيل. فقد كان الرشيد هو المنتصر على البيزنطيين قبيل فتح العلاقات حتى اضطرهم الى دفع الجزية سنة ٧٩٨م، كما أنه لا دليل على أن مسيحيي الشام كانوا خطراً يذكر على سلامة الدولة في عهده. ثم هل كان الرشيد يعرف قوة شارلمان مع بعد المسافة واختلاف الدين؟ وهل يمكن أن يضع الخليفة ثقته بذلك الغريب لاسترجاع

---

(١) انظر: Buckler- Harun al-Rashid and Charles the Great (Massachusetts 1931) p. 170 off.

مجيد خدوري ـ الصلات الدبلوماطيقية بين الرشيد وشارلمان (بغداد ١٩٣٩) ص ٢٣ وما بعدها.

Joranson-The Alleged Frankish Protectorate in Palestine. A. H. R. 1927 pp. 241-6;

S. Runciman- Charlemagne and Palestine. E. H. R. Oct. 1935 pp. 606 ff;

F.F. Schmidt- Karl der Grosse und Harun al-Rashid.

Der Islam Vol. III 1912 pp. 409-11.

(٢) انظر Runciman, o. c. p. 619 و Joranson, o. c. p. 251

(٣) Buckler, o. c. p. 34-7.

الاندلس؟ وهل يجوز لخليفة المسلمين أن يتفق مع مسيحي لضرب مسلمي الأندلس؟ وهل من المعقول أن يفكر الرشيد باسترجاع الأندلس في وقت اضطر فيه إلى أن يتخلى عن سلطته الحقيقية في أفريقية (تونس) والمغرب؟ كل هذه نقاط تنفي بصورة قوية وجود ما يدفع الرشيد لفتح صلات سياسية مع شارلمان. ومن الجهة الأخرى كانت علاقة شارلمان مع البيزنطيين حسنة في هذا الدور. ففي سنة ٧٩٨م أرسلت ايريني وفداً الى شارلمان للمفاوضة في عقد حلف[١] واقترحت عليه الزواج، ولعلها سلمت بإعطائه لقب امبراطور[٢]. ثم هل كان عرب الأندلس يدينون بالطاعة للخليفة العباسي وهم لم يبايعوه وقد حاربوا جده المنصور من قبل وهزموا جيشه؟ لا أرى ذلك.

وأخيراً يرى بارتولد أنه ليس من المعقول أن يكون الرشيد أرسل الفيل مع إسحق، بينما أرسل سفراءه مقدماً (بأياد فارغة)، ويرى أن اسحق كان من التجار اليهود المتاجرين بين الشرق والغرب، لا سفيراً[٣]. ويقوي رأيه هذا أن مصدرين لاتينيين يذكران أن غاية الوفد الأول كانت الحصول على فيل[٤].

أما فيما يخص نتائج الصلات، فيرى فاسيلييف Vasiliev أنه بينما حافظ الرشيد على سيادته على فلسطين، «صار لشارلمان بإذن الخليفة حق حماية المسيحيين والحجاج (في الأراضي المقدسة) وحق انشاء كنائس وخانات في فلسطين[٥]». أما بريبه Bréhier فيستنتج من قول اينهارد بأن الرشيد أجاب رغبات شارلمان (حسب طلب الوفد الأول) وأعطاه حق حماية الأراضي المقدسة كما أن ارسال البطريق لمفاتيح كنيسة القيامة كان معناه تقديم الطاعة للحامي الجديد.

وقد بين الأستاذ جورانسن أن آراء بريبه مبنية على التخمين لا على تدقيق علمي، وأنه لا توجد معلومات شافية عن غرض الوفد الأول، وأن مصدرين لاتينيين يبينان أن غرضه الحصول على فيل، فحصل عليه. وليس هناك ما يدل على أنه حصلت بينهم وبين الخليفة مفاوضة سياسية أو أنه كان بينهم وبين شارلمان اتصال بعد سفرهم، كما أننا لا ندري فيما إذا حصلت مفاوضة بين وفد هارون وبين شارلمان حتى أنه لا يوجد سجل بتاريخ رجوعه[٦]. أما تقديم المفاتيح والراية من قبل البطريق فلا يمكن أن يعطي معنى سياسياً لأن الرواة لا يعلقون عليه أهمية سياسية، بل يتفقون على أنه كان من باب الدعاء والتبريك «benedictionis causa» وإذن «فإعطاؤه معنى سياسياً هو تحميل المصادر ما ليس

(١) ibid p. 18.
(٢) ibid p. 20-21.
(٣) ibid p. 45.
(٤) Joranson, o. c. p. 243.
(٥) ibid p. 241
(٦) Joranson, p. 242-5.

فيها». ولا دليل على وجود علاقة بين صلات الخليفة وصلات البطريق بشارلمان. ثم يستطرد جورانسن ويقول إن «الأخبار الملكية» لا تذكر مهمة الوفد الافرنجي الثاني، وأن اينهارد يضيف من عنده أن رسل شارلمان كانوا يحملون هبات لكنيسة القيامة وأنهم قدموا مطاليب فقبلها الرشيد ثم تكرم بمنح شارلمان حق الحماية على الأراضي المقدسة. ولكن اينهارد (في رأي جورانسن) لا يمكن الوثوق بـه كما أنـه يخلط بين هذه السفـارة وبين ارسال زكـريا بالهبات لكنيسة القيامة (سنة ٧٩٩م)، ثم إنه لا يعرف طلبات الوفد، بينما كان أمر الحماية تخميناً من عنده ولا قيمة له[١].

تبقى نقطة أخيرة وهي أن شارلمان أرسل صدقات وهبات الى فلسطين فاستعملت في تعمير بعض الكنائس، وأنشأ منزلاً للحجاج باسمه كما أنشأ مكتبة. ولكن ذلك لا يكفي، كما يرى جورانسن، للبرهنة على وجود حماية، خاصة وان اينهارد يذكر أن شارلمان «خطب ود الملوك وراء البحار لأنه أراد بالدرجة الأولى تحسين أحوال المسيحيين الذين يعيشون في ممالكهم» وهذا لا يقتصر على الرشيد[٢]. وهكذا يدحض جورانسن أسطورة حماية شارلمان على الأراضي المقدسة.

أما بكلر، فيعتقد أن الوفد الأول هو المهم، ومع أنه يعترف بأن تعاليم السفراء غيـر معلومة، فإنه يرى أن نجاح الرسالة يوحي بأنها كانت لغاية أو أكثر من ثلاث: (١) تحـديد وضع شارلمان حامياً للمصالح العباسية في الأندلس وفي غربي البحر المتوسط. (٢) عقد حلف مع الرشيد يرمي إلى التعاون المتبادل، فيقف شارلمان ضد الأندلس، ويقف الرشيد ضد البيزنطيين. أو السماح لايريني بأن تعقد الصلح مع العباسيين (لعله نسي أن الصلح عقد سنة ٧٩٨م). (٣) فتح الطريق للحجاج اللاتين لزيارة الأراضي المقدسة وحمايتهم من ظلم الأرثوذكس[٣]. وهكذا يبني بكلر نظريته على الحدس، وهو يعترف بأن حالة المسيحيين لم تكن سيئة ولكنه يقول إن سوء العلاقة بين الرشيد وبين نقفور استوجبت وضع تقييدات على المسيحيين ولذلك توسط شارلمان في الموضوع[٤] ويرى أن نتيجة المفاوضات كانت تعيين شارلمان والياً على القدس ضمن سيادة الخليفة العباسي مستدلاً على ذلك بـارسال بطريق القدس مفـاتيح المـدينة والرايـة[٥]. وهذا المنصب لا يتـطلب (في زعمه) حضـور شارلمان إلى القدس بل يقوم الرشيد بذلك كوكيل له[٦]. وكذلك عين شارلمان «أمير استيلاء» على الأندلس[٧].

(١) Joranson, o.c. pp. 248-52.

(٢) ibid p. 255.

(٣) Buckler p. 22.

(٤) ibid pp. 26-9.

(٥) ibid p. 30.

(٦) ibid p. 29 n. I.

(٧) ibid p. 35.

ويقول بكلر إن هذه المفاوضات يجب أن تنظر بمنظار الدبلوماسية الاسلامية، وهو بذلك يجعل شارلمان والياً على القدس ضمن سيادة الخليفة العباسي، ومن جهة أخرى يجعل الخليفة وكيله في تنفيذ مهامه! ثم هو يجعل شارلمان «أمير استيلاء» على الأندلس مستنداً بذلك الى تفسير الماوردي لامارة الاستيلاء. ولكن الماوردي يبين أن امارة الاستيلاء «تعقد عن اضطرار، فهي أن يستولي الأمير بالقوة على بلاد يقلده الخليفة إمارتها ويفوض إليه تدبيرها وسياستها فيكون الأمير باستيلائه مستبداً بالسياسة والتدبير والخليفة بإذنه متقلداً لأحكام الدين»[1]. فكيف يرضى الخليفة أن يكون لشارلمان حكم الأندلس ثم يستأذن منه أن يطبق أحكام الدين؟ وهل كان الأمويون كفاراً ليرضى الرشيد بهذا الترتيب المزري؟ ثم كيف يطمح الرشيد باسترجاع الأندلس، ويعترف مقدماً بأن الحكم فيها سيكون لغيره؟ وأخيراً نقول أن التضييق على المسيحيين كان بعد المفاوضة المزعومة لا قبلها وذلك لضرورات عسكرية. وهكذا نرى بكلر يتخبط في موضوع لا يفهم كنهه، ويفرض فروضاً لا أساس لها في الفقه أو التاريخ الاسلامي.

أما رنسيمان فيرى في نظرية حماية شارلمان على فلسطين اسطورة، اخترعها المؤرخ الأسطوري الراهب سنت كول الذي كتب حوالي خمسين سنة بعد وفاة شارلمان إذ جمع المعلومات عن الهدايا التي أرسلها الخليفة والبطريق مع معلومات اينهارد المضطربة ليكون قصة مضمونها أن الرشيد تنازل لشارلمان عن سيادة فلسطين وأرسل إليه وارداتها[2].

وهكذا يظهر وهي نظرية الحماية وأساسها الأسطوري. والذي أراه من هذه المعلومات المحدودة (ولم أظفر بالمصادر اللاتينية الثلاثة بالنص) احتمال وجود نوع من الصلات ولكنها صلات تجارية لا سياسية، وأن المسؤول عنها هم التجار اليهود العالميون الذين كانوا حلقة وصل بين الغرب والشرق، ولعلهم من اليهود الرادانية الذين كانوا يحسنون عدة لغات ويتاجرون بين فرنسا والأقطار الاسلامية والصين كما بين ابن خرداذبة[3]، خاصة وأن من أساليب التجار آنئذ أن يدّعوا بأنهم سفراء لتسهيل مصالحهم.

الرشيد والبرامكة:

كان البرامكة «من أهل بيوتات بلخ»[4] وكانوا سدنة معبد النوبهار فيها[5] ويرى بعض المؤرخين[6] أن معبد النوبهار كان بيتاً من بيوت النار الزردشتية الهامة، ولكن الأرجح أنه

---

(١) الماوردي ـ الأحكام السلطانية القاهرة ص ٢٧.

(٢) Runciman, o.c. p. 629.

(٣) ابن خرداذبة، المالك والممالك (باعتناء دي خويه، ليدن) ص ١٥٤.

(٤) المقدسي ج ٦ ص ١٠٤.

(٥) ياقوت ـ معجم البلدان (طبعة مصر) ج ٨ ص ٣٢١ ـ ٢.

(٦) كالمسعودي وابن خلكان ج ٢ ص ٢٤٣ ويميل الى هذا الرأي براون ـ تاريخ فارس الأدبي ج ١ ص ٢٥٧، ويكلسون ـ الأدب العربي ص ٢٥٩).

كان معبداً بوذياً كما يتضح من أقوال ابن الفقيه والقزويني واحد الرحالة الصينيين الذي زاره ووصفه[١].

وينتسبون الى (برمك) وهو ليس اسم لشخص وإنما هو لقب لكبير سدنة النوبهار. فيقول المسعودي في حديثه عن النوبهار «وكان الموكل بسدنته يدعى البرموك، وهو سمة عامة لكل سدنته، ومن أجل ذلك سميت البرامكة لأن خالد بن برمك كان من ولد من كان على هذا البيت»[٢]، ويؤيده ابن الفقيه وياقوت في ذلك[٣].

وأول من اتصل بالعباسيين من البرامكة خالد بن برمك الذي كان متصلاً بمحمد بن علي ثم بإبراهيم الامام بعده[٤]. وكان من رجال الدعوة البارزين، ويظهر أنه كان ادارياً قديراً[٥] فيذكر الجهشياري عنه أنه كان يتولى تقسيم الغنائم في عسكر قحطبة وأنه عهد اليه بتنظيم الخراج في خراسان[٦]. وبعد بيعة أبي العباس ولي ديوان الخراج وديوان الجند[٧]، وبعد مقتل الخلال كان يقوم مقام الوزير[٨]. ثم كان خالد من كبار مشاوري المنصور، فولي له ديوان الخراج[٩]. وولي عدة ولايات كولاية فارس، ثم ولاية الري وطبرستان ودنباوند[١٠]. ومما يذكر عنه أنه أشار على المنصور بعدم هدم إيوان كسرى عندما فكر بذلك لحاجته الى مواد البناء، فعلق المنصور على ذلك قائلاً «أبيت إلا الميل إلى أصحابك العجم»[١١].

وقد حافظ خالد على نفوذه في خلافة المهدي، فيذكر الجهشياري أن هذا الخليفة ولاه مقاطعة فارس «فقسط الخراج على أهلها ووضع عنهم خراج الشجر وكانوا يلزمون له خراجاً

---

(١) يقول عنه ابن الفقيه انه لعبادة الأصنام ص ٣٢٢، ويقول القزويني «كان بها (بلخ) النوبهار وهو أعظم بيت من بيوت الأصنام» ثم يقول «وملوك الهند والصين يأتون اليه» ص ٢٢١ ويؤيده ياقوت ج ٨ ص ٣٢١ وانظر مقال بارتولد عن البرامكة في دائرة المعارف الاسلامية ج ١ ص ٦٦٤.

(٢) مروج الذهب.

(٣) ابن الفقيه ص ٣٢٢ ـ ٣ يقول «فسموا سادتها (النوبهار) الأكبر برمكا» ويقول ياقوت ج ٨ ص ٣٢٢ «وكانوا يسمون السادن الأكبر برمكا». انظر دائرة المعارف الاسلامية ج ١ ص ٦٦٣.

(٤) ابن عساكر ـ التاريخ الكبير ج ٥ ص ٢٨.

(٥) انظر اليعقوبي ج ٢ ص ٨٠.

(٦) الجهشياري ص ٨٧.

(٧) شرحه ص ٨٩.

(٨) شرحه والفخري ص ١٥٩، ويقول البعض أنه استوزره راجع المسعودي ـ التنبيه ص ٢٩٩، ابن خلكان ج ١ ص ٢٠٦ ـ ٧، ابن عساكر ج ٥ ص ٢٨.

(٩) الجهشياري ص ٩٩.

(١٠) شرحه ص ٩٩، ص ٢٣٦.

(١١) الطبري ج ٩ ص ٢٦٠، الفخري ص ١٤٠.

ثقيلاً» ثم غضب عليه الخليفة فشفعت له الخيزران فرد الى منزلته[1]، وهذه هي البادرة الأولى للتعاون بين البرامكة والخيزران.

وفي سنة ١٦١هـ (٧٧٧ ـ ٨م) عهد المهدي إليه بتربية ابنه هارون[2]. ولما قاد هذا الأمير الصائفة سنة ١٦٣هـ (٧٧٩ ـ ٨٠م) قلد المهدي خالداً كتابة ابنه ونفقاته وتدبير أمر عسكره فأنجز مهمته بنجاح وحسن أثره لدى الخليفة[3]. ثم توفي خالد سنة ١٦٥هـ (٧٨١ ـ ٢م).

واعتنى خالد بتربية ابنه يحيى، فلا عجب أن عين هذا كاتباً للأمير هارون الذي ولي على المغرب (الأراضي الواقعة غرب الفرات سنة ١٦٣هـ)[4].

ولما بويع الهادي أقر يحيى على وظائفه، فيذكر الجهشياري «أن الهادي أمر يحيى أن يقوم بأمر هرون أخيه وأقره على كتابته وتدبير الأعمال التي كانت إليه»[5] ولما عزم الهادي على خلع الرشيد لعب يحيى دوراً هاماً في إنقاذ هارون وفي نقل الخلافة إليه، كما أنه كان في تعاون تام مع الخيزران[6].

ومن هذا العرض الموجز يتضح لنا أن البرامكة لعبوا دوراً ذا شأن قبل خلافة الرشيد، ولكنه ثانوي بالنسبة لسلطتهم ونفوذهم في عهد هذا الخليفة.

فلما بويع الرشيد بالخلافة، عرف ليحيى فضله وخدمته فقلده وزارته وأعطاه سلطة تكاد تكون مطلقة وقال له «يا ابة أنت أجلستني هذا المجلس ببركة رأيك وحسن تدبيرك وقد قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقي اليك، فاحكم بما ترى واستعمل من شئت واسقط من رأيت فإني غير ناظر معك في شيء»[7]. ويقول الجهشياري «وكانت الدواوين كلها الى يحيى ابن خالد سوى ديوان الخاتم»[8]. ثم عهد هذا الديوان الى يحيى سنة ١٧١هـ «فاجتمعت له الوزارتان»[9]. وخص الرشيد يحيى بامتيازات جديدة، فهو «أول من أمّر من الوزراء.. وكانت الكتب التي تنفذ من ديوان الخراج تؤرخ باسم يحيى بن خالد ولم تكن تنفذ إلا عن الخليفة»[10]. ويقول عنه الفخري «وكان يحيى.. كاتباً بليغاً لبيباً أديباً سديداً صائب الآراء

---

(١) الجهشياري ص ١٥١.

(٢) دائرة المعارف الاسلامية مادة (برامكة).

(٣) الجهشياري ص ١٥٠.

(٤) دائرة المعارف الاسلامية مادة برامكة، الطبري ج ٩ ص ٣٢٤.

(٥) الجهشياري ص ١٦٩، انظر الطبري ج ١٠ ص ٣٣.

(٦) أنظر الطبري ج ١٠ ص ٣٣ ـ ٥، الجهشياري ص ١٦٩ ـ ١٧١.

(٧) الطبري ج ١٠ ص ٥٠، الجهشياري ص ١٧٧، ابن خلكان ج ٢ ص ٤٤٣.

(٨) الجهشياري ص ١٧٧.

(٩) الطبري ج ١٠ ص ٥١.

(١٠) الجهشياري ص ١٧٧ ـ ٨.

حسن التدبير.. قوياً على الأمور جواداً حليمـاً عفيفاً»[١]. وقـد استطاع بمسـاعدة ولديـه الفضل، وهو الأكبر، وجعفر، من ادارة الأمبراطورية العباسية لمـدة سبع عشـرة سنة بين ١٧٠ ـ ١٨٧ هـ (٧٨٦ ـ ٨٠٣م).

والفضل هو أخو الرشيد بالرضاعة[٢]، وهو جدّي بطبعـه، وفي أخلاقـه خشونـة[٣]. وكان أبوه يقدمه على جعفر[٤] ويظهر أنه كـان أكثر من أخيـه أهمية في الادارة الفعليـة، فيروي الفخري أن الرشيد قال يوماً ليحيى «يا أبي ما بال الناس يسمـون الفضل الوزيـر الصغير ولا يسمون جعفراً بذلك؟ قال يحيى لأن الفضل يخلفني»[٥]. وقد ولي الفضل ولايات هامة وانتدب لمهمات خطيرة، فهو الذي أخمد ثورة يحيى بن عبدالله العلوي بمهـارة ودون سفـك دمـاء. وولاه الرشيـد سنـة ١٧٦هـ (٧٩٢م) على الجبال وطبـرستـان ودنبـاونـد وأرمينية[٦]. وفي سنة ١٧٨ ـ ٩هـ ولاه على خراسان ويقول الطبري أنـه أحسن السيرة فيها[٧]. ويبين الجهشياري أنه أحرق «دفاتر البقايا» وزاد في رواتب الجند والقواد وأكرم الكتّاب[٨]. وتنسب إليه بعض الأعمال العظيمة أثناء ولايته لخراسان كإنشاء جيش خراساني من خمسمائة الف سماهم العباسية، وبناء مساجد ورباطات كثيرة وحفر قناة ببلخ[٩]. وهذا كثير إذا لاحظنا أن مدة ولايته كانت سنة واحدة وأنه كان مشغـولاً في أول أمره بـالانس والملذات حتى عاتبه والده على ذلك[١٠]. ولعل هذا مثل من أمثلة مبالغات الكتاب في أعمال البرامكة.

وقد عهد الرشيد الى الفضل بتربية الأمين[١١]. ويقول الطبري أن الفضل لعب دوراً في البيعة للأمين إذ أنه «لما تولى خراسان أجمع على البيعة لمحمد.. فلما تناهى الخبر الى الرشيد بذلك وبايع له أهل المشرق بايع لمحمد وكتب الى الآفاق»[١٢]. ولكن اليعقوبي يبين

---

(١) الفخري (١٣١٧) ص ١٧٩.
(٢) شرحه ص١٨٣، الطبري ج ١٠ ص ٤٨.
(٣) الفخري ص ١٨٦.
(٤) الجهشياري ص ١٨٩.
(٥) الفخري ص ١٨٦.
(٦) الطبري،ج ١٠ ص ٥٤.
(٧) شرحه ج ١٠ ص ٦٣.
(٨) الجهشياري ص ١٩٠.
(٩) الطبري ج ١٠ ص ٦٢ ـ ٣، دائرة المعارف الاسلامية ج ١ ص ٦٦٣.
(١٠) المسعودي ج ٣ ص ٢٨٤.
(١١) الجهشياري ص ١٩٣.
(١٢) شرحه، الطبري ج ١٠ ص ٥٣.

ان البيعة للأمين كانت في سنة ١٧٦هـ[١] وأخيراً نذكر أن الفضل كان أول من أشعل المصابيح في المساجد في شهر رمضان[٢].

وهكذا تتضح أهمية الدور الذي لعبه الفضل في الدولة، وأنه اقتصر على الأشغال الرسمية ولم يلعب دوراً مهماً في حياة البلاط لطبيعته الجدّية[٣]، فذكر ابن كثير أن الفضل أكبر رتبة عند الرشيد من جعفر وأن جعفراً أحظى عند الرشيد من أخيه وأخص[٤].

وأما جعفر فقد كان شاباً[٥] مترفاً ظريفاً اشتهر بفصاحته وبيانه، فيقول عنه الفخري «كان جعفر فصيحاً لبيباً ذكياً فطناً كريماً حليماً»[٦]. وكانت توقيعاته على رقاع المتظلمين نماذج للكتّاب. يقول الجهشياري «كان جعفر كاتباً بليغاً، وكان اذا وقع نسخت توقيعاته وتدورست بلاغاته»[٧]. وكان مشهوراً بالتأنق بلباسه ومسكنه[٨]، ومما يذكر عنه أنه أول من أدخل لبس الأطواق (الياخة) لطول رقبته[٩].

والظاهر أن جعفراً اختص بمنادمة الرشيد وخدمته لسهولة أخلاقه[١٠]، وكان يلازمه دائماً عدا سنة ١٨٠هـ حين ذهب لتهدئة العصبية القبلية في الشام. وهناك إشارات الى تولية جعفر على بعض الولايات ولكنه كان يرسل نواباً عنه. ففي سنة ١٧٦هـ ولاه الرشيد المغرب من الأنبار الى أفريقية فأرسل نائباً عنه[١١]. وكذلك انتدب من ينوب عنه حينما ولي خراسان سنة ١٨٠هـ[١٢]. ولهذا ولانشغاله بخدمة الرشيد فإنه يصعب معرفة مدى مشاركته في تسيير سياسة الدولة، وربما كان دوره السياسي ضعيفاً بالنسبة لدور أخيه وأبيه.

ولكن جعفراً كان واسع النفوذ لانه كان أكثر البرامكة اتصالاً بالرشيد صديقاً ونديماً. ويقول الجهشياري «وغلب جعفر على الرشيد غلبة شديدة حتى صار لا يقدّم عليه أحداً»[١٣].

---

(١) اليعقوبي ج ٣ ص ١٤٠.
(٢) دائرة المعارف الاسلامية ج ١ ص ٦٦٣.
(٣) يذكر الجهشياري ان الفضل لا يشرب النبيذ وكان يقول لو علمت أن الماء ينقص من مروءتي لما شربته ص ١٩٤، انظر الطبري ج ١٠ ص ٨٢.
(٤) ابن كثير ـ البداية والنهاية في التاريخ (مطبعة السعادة) ج ١٠ ص ٢١٠ ـ ٢١١.
(٥) كان سنه سبع وثلاثون سنة عندما قتل.
(٦) الفخري ص ١٨٦.
(٧) انظر الجهشياري ص ٢٠٤ وص ٢١٠.
(٨) انظر ابن كثير ج ١٠ ص ١٨٩ والفخري ص ١٨٧.
(٩) الجاحظ البيان والتبيين ج ٣ ص ٢١٢.
(١٠) الفخري ص ١٨٦.
(١١) الجهشياري ص ١٩٠، انظر السيوطي ـ حسن المحاضرة (القاهرة ١٣٢١) ج ٢ ص ٨ ـ ٩.
(١٢) الطبري ج ١٠ ص ٨٦ وابن الأثير ج ٦ ص ٦١.
(١٣) الجهشياري ص ١٨٩.

طوس قبيل وفاة الرشيد يطلب من الفضل بن الربيع والقواد الرجوع الى بغداد عند وفاة والده وعدم تسليم الجيش للمأمون[1]. ولم يكن لعلي بن عيسى شأن آنئذ كما أن ابن الربيع كان بعيداً عنه، ولا شك أن هذا العمل كان أول ضربة لعهود الرشيد.

ولكن أطماع حاشية الأمين والمأمون كانت عوامل أسرعت بتقدم الخلاف وشجعت على تعقيده. فابن الربيع يرجع بالجيش الى بغداد عند وفاة الرشيد قائلاً «لا أدع ملكاً حاضراً لآخر لا يدري ما يكون من أمره»[2]. وابن سهل يشجع المأمون على رفض طلبات الأمين مدفوعاً بمطامح قومية وأخرى شخصية. فيروي الجهشياري أن أبا محمد اليزيدي ذكر للفضل بن سهل حسن رأي المأمون (وكان أميراً آنئذ) فيه وأضاف «وإني لأرجو أن يبلغك الله مبلغاً تتمكن منه معه وتملك الف الف درهم» فغضب الفضل بن سهل وقال «والله ما صحبت هذا الأمير لأكسب معه مالاً قل أو كثر وان همتي لتتجاوز كل ما يجوز أن يملك» وأوضح أنه خدمه «ليجوز طابع هذا (يشير الى الخاتم) في الشرق والغرب. لهذا خدمته ولهذا صحبته»[3].

وقد مر النزاع بين الأمين والمأمون في دورين، الأول دبلوماسي سلمي انتهى سنة ١٩٥هـ. والثاني علني عسكري انتهى بمقتل الأمين سنة ١٩٨هـ.

دور الدبلوماسية في الخلاف

لعل خير تعليق على هذا الدور قول كشاجم:

هنيئاً لأصحاب السيوف بطالة تقضي بها أوقاتهم في التنعم
ولكن ذوو الأقلام في كل ساعة سيوفهم ليست تجف من الدم

فقد لعبت الدعاية من جهة، والمناورات السياسية من جهة أخرى دوراً يعدل أو يزيد على أهمية الجيوش. وتلك المناورات لها أهميتها لأنها تعطي فكرة عن أساليب السياسة في العصر الذي نكتب عنه، وخاصة وأنها مسجلة في الرسائل المتبادلة بين الطرفين.

ويبدأ هذا الدور بمرض الرشيد بطوس. إذ أنه جدد البيعة للمأمون وأشهد بأن يكون من معه من الجند والمال والأثاث والسلاح للمأمون إن حدثت به حادثة. ولما علم الأمين بمرض والده بعث من يأتيه بخبره كل يوم، ثم أرسل بكراً بن المعتمر «وكانت معه كتب ظاهرة بعيادته (الرشيد) وكتب باطنة الى القوم بالقفول والاحتياط على ما في العسكر» وجعل له في كل يوم ألف دينار[4]. ولما فطن الرشيد لوجود كتب سرية استجوب بكراً فأنكرها رغم تهديده وتقييده. ومن تلك الكتب واحد للمأمون بأخذ البيعة على الناس لهما ولأخيهما المؤتمن، وكان

---

(١) انظر الجهشياري ص ٢٧٣.
(٢) الطبري ج ١٠ ص ١٢٨.
(٣) الجهشياري ص ٢٨٠.
(٤) الجهشياري ص ٢٧٣، الطبري ج ١٠ ص ١٣٤.

المأمون آنئذ بمرو. وكتب الى أخيه صالح يأمره بتسيير العسكر واستصحاب ما فيه[1] وأوصاه «وإياك أن تنفذ رأياً أو تبرم أمراً إلا برأي شيخك وثقة آبائك الفضل بن الربيع»[2]. وكتاب الى الفضل يأمره «بالحفظ والاحتياط على ما معه من الحرم والأموال وغير ذلك» وآخر الى اسماعيل بن صبيح[3].

ولم يتردد الفضل بن الربيع، بل رجع بالعسكر وما فيه «ولم يعرج على المأمون ولا التفت اليه»[4] وهذه أول مخالفة ظاهرة لوصية الرشيد، فاستنكرها المأمون وشعر بعدم استقامة نية الأمين تجاهه. ولما سمع بالخبر عقد مجلساً لبحث القضية، فأشير عليه بأن يلحق الفضل بن الربيع بجيش من ألفي فارس لرده[5]، ولكن الفضل بن سهل حذر عاقبة ذلك وقال «إذا فعلت هذا لم آمن أن يقبضوا عليك ويجعلوك هدية الى محمد، ولكن تقيم وتكتب إليهم كتاباً وتوجه إليهم رسولاً يذكرهم البيعة». فقبل المأمون رأيه وأرسل رسولين الى ابن الربيع فعوملا معاملة عدائية، وأخبرا المأمون بذلك. ولكن ابن سهل شجع المأمون قائلاً «هؤلاء أعداء استرحت منهم»[6].

وأخذ الفضل بن سهل يشجع المأمون ويسعى لتثبيت مركزه باسترضاء أهل خراسان من مختلف الطبقات، فأشار عليه: «والرأي أن تجمع الفقهاء وتدعوهم الى الحق والعمل به واحياء السنة وأن تقعد على اللبود (الصوف) وتواصل النظر في المظالم» ليثير بذلك أمل الخراسانيين بإنشاء حكم العدل الذي لم يحققه أسلاف المأمون من بني العباس. ثم أشار عليه باسترضاء الطبقة الارستقراطية «وتكرم القواد والملوك ففعل ذلك» وباسترضاء عامة الشعب بأن «حط عن خراسان ربع الخراج» فحسن موقع ذلك من الناس وسروا به وقالوا «ابن اختنا وابن عم رسول الله»[7].

وبنفس الوقت أظهر المأمون التودد لأخيه «وأهدى اليه هدايا كثيرة وتواترت كتب المأمون الى محمد بالتعظيم والهدايا اليه من طرف خراسان»[8].

أما الأمين فلم يتسرع في تنفيذ مشروعه الأول وهو بسط نفوذه على أخويه وتقديم ابنه في البيعة بل سعى بالتدريج نحو غايته. فبدأ بعزل القاسم عن الجزيرة سنة ١٩٣هـ

---

(١) ابن الأثير ج ٦ ص ٨٩.
(٢) الجهشياري ٢٧٦.
(٣) شرحه ص ٢٧٣، ابن الأثير ج ٦ ص ٨٩.
(٤) الجهشياري ص ٢٧٧.
(٥) الطبري ج ١٠ ص ١٢٨.
(٦) الجهشياري ص ٢٧٧
(٧) شرحه ص ٢٧٨ ـ ٩، الطبري ج ١٠ ص ١٢٩.
(٨) الطبري ج ١٠ ص ١٢٩.

واقرة على قنسرين والعواصم[1] ثم عزله سنة ١٩٤هـ عن كل ما بيده واستقدمه الى بغداد. ثم «كتب (سنة ١٩٤هـ ٨٠٩م) الى جميع العمال بالدعاء لإبنه موسى بالأمرة بعد الدعاء له وللمأمون والقاسم»[2]. ولما سمع المأمون بعزل القاسم، وبالدعاء لابن أخيه أدرك أن الأمين ينوي تغيير العهد «فقطع البريد عن محمد وأسقط اسمه من الطرن»[3].

ولكن الأمين لم يظهر نواياه بل نوى أن يطلب من المأمون أن يتنازل له عن بعض أجزاء ولايته ليقلل من قوته فحذره القاسم بن صبيح من ذلك لأنه «توكيد للظن وتقوية للتهمة ومدعاة للحذر» وقال «ولكن تكتب إليه وتعرفه حاجتك إليه وشوقك إلى قربه وإيثارك الاستعانة برأيه ومشورته وتسأله القدوم عليك فإن ذلك أحرى أن لا يوحشه»[4] وأضاف «فإذا قدم عليك وفرقتْ بينه وبين جنده كسرت حده وظفرت به وصار رهناً في يديك فأت في أمره ما أردت»[5]. فاستحسن الأمين رأيه، وكتب الى أخيه في هذا المعنى رسالة أرسلها (على قول الدينوري) مع وفد ليقنع المأمون بالقبول. فلما وصل الوفد أكرمه المأمون، ثم استشار وزيره الفضل بن سهل في الأمر وأبدى حذره من الأمين، ومخاوفه من حرج الوضع الذي يجد نفسه فيه، فقوىّ الفضل عزيمته ونصحه بتقوية جيشه وبالاعتذار عن الذهاب الى بغداد[6]. وفي اليوم التالي أوصى المأمون رجال الوفد أن «يحسنوا أمره عند الأمين ويبسطوا من عذره» وزودهم برسالة جاء فيها «أما بعد فإن الامام الرشيد ولاني هذه الأرض على حين كلب من عدوها ووهي من سدّها وضعف من جنودها ومتى أخللت بها أو زلت عنها لم آمن انتقاض الأمور فيها وغلبة أعدائها عليها بما يصل ضرره الى أمير المؤمنين حيث هو. فرأي أمير المؤمنين أن لا ينقض ما أبرمه الامام الرشيد»[7].

فلما يئس الأمين من مجيء المأمون، عاد الى رأيه الأول وكتب الى أخيه «يسأله أن يتجافى له عن كور من كور خراسان سماها، وأن يوجه العمال اليها من قبل محمد، وأن يحتمل في توجيه رجل من قبله يوليه البريد عليه ليكتب اليه بخبره»[8]. وأراد بذلك أن يضعف المأمون وأن يجعله بالفعل تابعاً له وخاضعاً لرقابته..فاضطرب المأمون لهذا الطلب وعقد مجلساً للشورى حسب اقتراح الفضل بن سهل، «فأشاروا عليه جميعاً بإجابته (الأمين) الى ما سأل» إلا الفضل بن سهل فإنه ذكرهم «ان محمداً تجاوز الى طلب ما ليس له بحق»،

---

(١) ابن الأثير ج ٦ ص ٩٠.

(٢) الطبري ج ١٠ ص ١٢٩.

(٣) شرحه ج ١٠ ص ١٣٠، ابن الأثير ج ٦ ص ٩١. كتابة الاسم على الطرز رمز الولاء للسلطان.

(٤) الجهشياري ص ٢٩١ ـ ٢.

(٥) الدينوري ص ٣٨٣.

(٦) الطبري ج ١٠ ص ١٤٧ ـ ٨.

(٧) الدينوري ص ٢٩٠ ـ ١.

(٨) الطبري ج ١٠ ص ١٣٢، الجهشياري ص ٢٨٩.

ثم سألهم «وهل تثقون بكفه (أي الأمين) بعد إعطائه ذلك الاَّ يتجاوز بالطلب الى غيره؟ قالوا، لا ولكنا نرجو السلامة». فبين الفضل ضعف رأيهم واقترح الرفض، فوافقه المأمون على ذلك وكتب الى أخيه:

«.. وما أمر رآه أميرالمؤمنين أحد يجاوز أكثره، غير أن الذي جعل إليّ الطرف الذي أنا به لا ظنين في النظر لعامته ولا جاهل بما أسند إليّ من أمره. ولو لم يكن ذلك مثبتاً بالعهود والمواثيق المأخوذة ثم كنت على الحال التي أنا عليها من أشراف عدو مخوف الشوكة وعامة لا تتألف عن هضمها وأجناد لا يستتبع طاعتها إلا بالأموال وطرف من الأفضال لكان في نظر أمير المؤمنين لعامته وما يجب من لم أطرافه ما يوجب عليه أن يقسم له كثيراً من عنايته ويستصلحه ببذل كثير من ماله، فكيف بمسألة ما أوجبه الحق ووكدته مأخوذة العهد! وإني لأعلم أن أمير المؤمنين لو علم من الحال ما علمت لم يطلع ما كتب بمسألته. ثم أنا على ثقة من القبول بعد البيان إن شاء الله»(١).

وبنفس الوقت حاول المأمون سد المجال أمام دعاية الأمين لاستمالة أهل خراسان، فوضع ثقات الحراس على الطرق و «منع الاشتات من جواز السبل» وأمر بتفتيش الرسائل، وأوصى الحرس بأن «لا يجوز رسول من العراق حتى يوجهوه مع ثقات من الأمناء، ولا يدعه يستعلم خبراً ولا يستتبع بالرغبة ولا بالرهبة أحداً، ولا يبلغ أحداً قولاً ولا كتاباً». فكانت النتيجة أن «حصر أهل خراسان من أن يستمالوا برغبة أو أن تودع صدورهم رهبة أو أن يحملوا على منوال خلاف أو مفارقة»(٢).

أما الأمين فإنه كتب رسالة جديدة يؤكد فيها طلبه الأول، مبيناً للمأمون أن الرشيد أضاف الى ولايته «كوراً من أمهات كور الأموال لا حاجة لك فيها. فالحق أن تكون مردودة في أهلها ومواضع حقها»، و«أن تأذن لقائم بالخبر يكون بحضرتك يؤدي لنا علم ما نعني به من خبر طرفك». وختم قائلاً «فاثن عن همك اثن عن مطالبتك»(٣) وأرسل الرسالة مع وفد أوصاه بالتشنيع على المأمون ونشر بذور الخلاف ضده وباستمالة بعض الشخصيات الهامة بالأموال والوظائف. ولكنهم لم يوفقوا في مهمتهم لأنهم «لما صاروا الى حد الري وجدوا تدبيراً مؤيداً ...وأخذتهم الأحراس من جوانبهم فحفظوا من أن يخبروا أو يستخبروا ... حتى صاروا الى المأمون»(٤).

وبعد الاطلاع، رفض المأمون برسالة لينة حازمة جاء فيها: «فلا تبعثني يا ابن أبي على مخالفتك، وأنا مذعن بطاعتك ولا على قطيعتك، وأنا على إيثار ما تحب من صلتك.

---

(١) الطبري ج ١٠ ص ١٣٢.

(٢) شرحه، ابن الأثير ج ٦ ص ٩٢.

(٣) الطبري ج ١٠ ص ١٣٢. لا بد من التنبيه الى الاضطراب المربك في اعطاء الرسائل دون مراعاة زمن ارسالها في الطبري وفي غيره من المصادر. وقد أدى بي اجتهادي الى ترتيبها كما هو مثبت اعلاه.

(٤) الطبري ج ١٠ ص ١٣٣.

وارض بما حكم الحق في أمرك أكن بالمكان الذي أنزلني به الحق فيما بيني وبينك والسلام». وكذلك أوصى رسل الأمين «اعلموه أني لا أزال على طاعته حتى يضطرني بترك الحق الواجب الى مخالفته»، وأكد عليهم تأدية ما قال دون تبديل. ويعلق الطبري على هذا قائلاً: «فانصرف الرسل فلم يثبتوا لأنفسهم حجة ولم يحملوا خبراً يؤدونه الى صاحبهم»(١).

وقد أثارت هذه الرسالة غضب الأمين، فكتب الى أخيه بلهجة قوية قائلاً «أما بعد فقد بلغني كتابك غامطاً لنعمة الله عليك فيما مكن لك في ظلها، متعرضاً لحراق نار لا قِبَلَ لك بها، ولحضك عن الطاعة كان أودع. وإن كان قد تقدم مني متقدم فليس بخارج عن مواضع نفعك، إذ كان راجعاً على العامة من رعيتك وأكثر من ذلك ما يمكن لك من منزلة السلامة.. فاعلمني رأيك أعمل عليه»(٢) وهكذا هدد الأمين أخاه مبيناً فوائد الاذعان، ومذكراً إياه بأنه استمر على المفاوضة رأفة به وإلا فالبطش به يسير.

ولكن المأمون لم يتزعزع، بل أجاب برسالة قوية الحجج، رفض فيها مطالب أخيه وذكره بأنه صار «منكراً لأبائي منزلة تهضمني بها وأرادني على خلاف ما يصلح من الحق فيها.. فأولى به أن يدير الحق في أمره ثم يأخذ به ويعطي من نفسه.. وأما ما وعد من بر طاعته وأوعد من الوطأة بمخالفته فهل أحد فارق الحق في فعله فأبقى للمتبين موضع ثقة بقوله!»(٣).

والآن وصلت العلاقة دوراً لم يبق فيه مجال للمجاملات، وأصبح التصريح ضرورياً. فأرسل الأمين وفداً سياسياً، يتألف من ثلاثة أشخاص، أحدهم العباس بن موسى بن عيسى، إلى المأمون ليفاوضه في تقديم موسى بن الأمين عليه في العهد. ويذكر الطبري أن العباس بن موسى قام خطيباً وأخذ يهون على المأمون تقديم موسى عليه، وذكر له تنازل عيسى بن موسى عن ولاية العهد مرتين، فصاح به الفضل بن سهل «اسكت فإن جدك كان في أيديهم أسيراً، وهذا (أي المأمون) بين أخواله وشيعته»(٤). وانتهت محاولات الوفد بالخيبة، ولكن الفضل بن سهل استطاع بدهائه أن يستميل العباس بن موسى حتى أخذ عليه البيعة للمأمون. ويشرح ابن سهل ذلك فيقول: «قلت للعباس لك عندي ولاية الموسم وولاية أشرف منها ولك من مواضع الأعمال بمصر ما شئت. فما برح حتى أخذت عليه البيعة للمأمون بالخلافة. فكان بعد ذلك يكتب إلينا بالأخبار ويشير علينا بالرأي»(٥). وهذا الحادث دليل صريح على مدى اخلاص حاشية الأمين له، ومثل من أمثلة المناورات السياسية.

---

(١) الطبري ج١٠ ص ١٣٤.

(٢) شرحه.

(٣) شرحه ج ١٠ ص ١٤٣.

(٤) شرحه ج ١٠ ص ١٣١.

(٥) شرحه.

وبعد فشل هذا الوفد أصبح النزاع المسلح أمراً محتماً. ففي أوائل سنة ١٩٥هـ ٨١٢م أمر الأمين بالامساك عن الدعاء للمأمون وأعلن البيعة لابنه موسى، ولقبه «الناطق بالحق»، وضرب دراهم ودنانير تذكارية نقش عليها بالاضافة الى إسم ولي العهد ما يلي:

كل عز ومفخر فلموسى المظفر
ملك خص ذكره في الكتاب المسطر[١]

ولم ينته دور الدبلوماسية بانتهاء المراسلات بل استمر اثناء النزاع المسلح. فقد أرسل المأمون سفيراً الى أعيان أهل العسكر ببغداد طالباً منهم تأييده ضد الأمين أو الوقوف موقف الحياد على الأقل، فوصل السفير وقت خلع المأمون، ومكث في بغداد يحاول استمالة القادة ويكتب الى المأمون بالأخبار. وقد كتب الى المأمون بعد فحص الوضع ببغداد ما يلي: «وجدت أكثر الناس ولاة السريرة (للمأمون) ونفاة العلانية، ووجدت المستمالين بالرغبة (الى الأمين) لا يحوطون الا عنها ولا ينالون ما احتملوا فيها (أي قليلي الثبات)، والمنازع مختلج الرأي لا يجد دافعاً عن همه.. والقوم على جد فلا تميلوا للتواني»[٢].

وعندما سير الأمين علي بن عيسى بن ماهان لقتال أخيه، حاول المأمون أن يستميله الى جانبه، أو أن يثبط عزمه عن الحرب، فأرسل له رسالة وصف فيها موقف علي بأنه «طعن في عقدة كنت (الخطاب لعلي) القائم بشدها وبعهود توليت معاقد أخذها، يبدأ فيها بالأخصين حتى أفضى الأمر الى العامة من المسلمين بالايمان المحرجة والمواثيق المؤكدة، وما طلع مما يدعو الى نشر كلمة أو تفريق أمة أوشت جماعة. وتتعرض لتبديل نعمة، وزوال ما وطأت الأسلاف من الأئمة» ثم يحذره سوء العاقبة قائلاً «ومتى زالت نعمة من ولاة أمركم وصل زوالها اليكم»[٣].

وهذا الأمين يكتب في أواخر أيامه، وجيش طاهر يضيق عليه الخناق، رسالة الى طاهر ابن الحسين ينذره فيها قائلاً «.. اعلم أنه ما قام لنا مذ قائم بحقنا وكان جزاؤه إلا السيف فانظر لنفسك أو دع» وقد أثرت هذه الرسالة كثيراً في نفس طاهر حتى أنه لما رجع الى خراسان أخرجها الى خاصته وقال لهم «والله ما هذا كتاب مضعوف ولكنه كتاب مخذول»[٤].

ثم لاحظ تصرف المأمون، فهو لا يجهر بخلع أخيه ويكتفي بتسمية نفسه بالامام[٥]

---

(١) المقريزي ـ شذور العقود. (النجف) ص ١٢.

(٢) الطبري ج ١٠ ص ١٣٦.

(٣) شرحه ج ١٠ ص ١٤٣.

(٤) المسعودي ج ٣ ص ٣٠٨.

(٥) هذه اول مرة يستعمل فيها العباسيون لقب إمام، ولعل المامون استعمله لأنه فيه تأكيد على الناحية الدينية لا الدنيوية من سلطة رئيس المسلمين. انظر الطبري ج ١٠ ص ١٣١.

الى أن انتصر جيشه على جيش علي بن عيسى سنة ١٩٦هـ وعندئذ خطب في الخراسانيين وأكثر من العهود والوعود التي تذكر بعهود أسلافه من بني العباس عند أول مجيئهم الى الحكم فقال في خطابه «أيها الناس إني جعلت لله على نفسي إن استرعاني أموركم أن أطيعه فيكم ولا أسفك دماً عمداً لا تحله حدوده وتسفكه فرائضه ولا آخذ لأحد مالاً ولا أثاثاً ولا نحلة تحرم علي، ولا أحكم بهواي في غضبي ولا رضاي إلا ما كان في الله له. جعلت ذلك كله لله عهداً مؤكداً وميثاقاً مشدداً، إني أفي رغبة في زيادته إياي في نعمي ورهبة في مسألته إياي عن حقه وخلقه. فإن غيرت أو بدلت كنت للعبر مستأهلاً وللنكال متعرضاً، وأعوذ بالله من سخطه وأرغب اليه في المعونة على طاعته وأن يحول بيني وبين معصيته»[١]. فكان هذا الخطاب بمثابة عهد أعظم فرضه المأمون على نفسه للخراسانيين ولبقية الناس لينال تأييدهم الكلي وليكسب قضيته ثوب الحق والعدل. ولهذا العهد أهمية في المستقبل لأن فشل المأمون في تنفيذ ما وعد به كان آخر معول في هدم التعاون بين الخراسانيين وبين العباسيين. فصار أهل خراسان يعتقدون أنه لا فائدة من وعود العباسيين، وظهرت عندهم النزعة الانفصالية بشكل شامل فأدت أخيراً الى استقلال خراسان وبقية إيران بالتدريج.

ولعلنا وضحنا في هذا القسم روح الدبلوماسية في العصر العباسي الأول وأساليبها ومدى أثرها في سير الحوادث.

حوادث الحرب (١٩٥ ـ ١٩٨هـ).

وهي مفصلة في كتب التاريخ ولا داعي لسردها، ويكفي ملاحظة بعض النقاط التي أثرت في سيرها.

فهناك ضعف معنوية جيش الأمين وقلة ثباتهم، فجيش علي بن عيسى مزّق مع أنه يبلغ أضعاف جيش طاهر بن الحسين. ورجع الجيش الثالث الذي أرسله الأمين ضد طاهر بقيادة أحمد بن مزيد دون قتال لأن طاهر بث فيه دعاية ولدت الشقاق وأدت الى تفريقه.

ثم إفساد الأمين لجنده بكثرة العطايا والأموال التي قدمها لهم دون التأكيد على بث روح الطاعة والنظام فيهم فأصبح همهم الحصول على الأموال. فمثلاً نراهم بعد مقتل علي ابن عيسى وهزيمة جيشه يشاغبون ويطلبون بكل وقاحة الزيادة في الأرزاق، فيمنع الأمين من تأديبهم ويأمر بتوزيع الأموال عليهم[٢].

ويظهر من المصادر أن الأمين لم يحاول جدياً استصفاء قلوب الرعية كما حاول المأمون، أو أنه لم ينجح في ذلك، ولهذا حصلت اضطرابات داخلية ضده في عاصمته بنفس الوقت الذي كان فيه جيشه ينازع جيش المأمون. فأصبح بين نارين فتنة داخلية وحرب خارجية.

---

(١) اليعقوبي ج ٣ ص ١٦٧ ـ ٨، انظر الجهشياري ص ٢٧٩.

(٢) ابن خلدون (بولاق) ج ٣ ص ٢٣٤.

ولا شك أن الأمين أخطأ في تولية علي بن عيسى بن ماهان قيادة الجيش الأول لحرب الخراسانيين، مع أنهم أعدى الناس له لأنهم لم ينسوا ظلمه وفظائعه وهذا زاد في استماتتهم في القتال وأثر في تحطيم جيش الأمين.

وفي الختام يظهر لي من دراسة كل من الأمين والمأمون أن المؤرخين بالغوا في تمجيد قابليات المأمون وفي تفضيله على الأمين، وأنكروا على الأمين مقدرته التي تتجلى أثناء الخلاف خاصة وأنه هو الذي كان يضع الخطط العامة ويدبر الأمور، ونسوا دور الفضل بن سهل ذلك السياسي العبقري الذي كان يشجع المأمون على الثبات دائماً في وجه أخيه بعد أن كاد يستسلم أمام تهديداته. فهذا الطبري يروي أن الأمين لما طلب من المأمون القدوم عليه الى بغداد «اسقط في يده وتعاظمه ما ورد عليه منه ولم يدر ما يرد عليه» وعندما أشار عليه الفضل بالرفض قال«وكيف يمكنني التمسك بموضعي ومخالفة محمد ومعظم القواد والجنود معه وأكثر الأموال والخزائن قد صارت اليه مع ما قد فرقه في أهل بغداد من صلاته وفوائده..» فينصحه الفضل بالمقاومة فإما الظفر أو الموت الشريف[1]. وهذا التنوخي يبين كيف أن بعض القواد شغبوا على المأمون يطلبون الأرزاق بعد أن أرسل طاهراً لمقاتلة علي بن عيسى، فأراد المأمون أن يهرب إلا أن الفضل ثبته[2]. ويكفي فحص أعمال المأمون في مرو لنرى أن ابن سهل كان الرأس المفكر الذي سدد خطى المأمون في كل حركة من حركاته.

ثم كان المأمون موفقاً من ناحية قواده، فلم يكن لدى الأمين قائد يقارن بطاهر بن الحسين، حتى يروى عن الأمين أنه قال «وهل كان المأمون لو اجتهد بنفسه وتولى الأمر برأيه بالغاً عشر ما بلغه طاهر له!»[3]. وكان جيش المأمون متجانساً متحداً وجيش الأمين غير متجانس وكان ذلك لحد كبير ناتجاً عن الظروف المحيطة بكل منهما.

وكان أتباع المأمون يناضلون عن عقيدة قوية إذ أحيا المأمون آمالهم بوعوده، وبوجوده في خراسان، فصاروا يتطلعون الى إرجاع عزهم ويأملون انتقال السلطة اليهم فناضلوا عن اخلاص، بينما كان أتباع الأمين من ساسة وجند لا يهتمون إلا بالمال وبمصالحهم الشخصية، فأين موقف الفضل بن سهل من موقف العباس بن موسى الذي يخون سيده ويصبح جاسوساً عليه؟ أو موقف حسين بن علي بن عيسى الذي يثور ضدسيده ويسجنه، أو موقف الفضل بن الربيع الذي يتخلى عن الأمين في أحرج ساعاته! فيذكر الجهشياري «ولما رأى الفضل بن الربيع قوة المأمون، واتصال ضعف محمد.. وانفلال

---

(١) الطبري ج ١٠ ص ١٤٩.

(٢) التنوخي ـ الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ٧ ـ ٨.

(٣) المسعودي ج ٣ ص ٢٦١.

الناس عنه، وتمزق الأموال التي كانت في يده استتر في رجب سنة ١٩٦هـ»[١] عندما كان الأمين في أحوج ما يكون الى النصحاء والمخلصين.

وقبل الانتهاء أقول أن هذا الخلاف أدى الى اختلال التوازن من جديد بين العرب والفرس في الدولة والى تعاظم النفوذ الفارسي لدرجة خطرة على سلامة الدولة كما سنرى.

---

(١) الجهشياري ص ٢٠١ ـ ٢.

الثورة، إذ أن نائب أبي إسحق على الخراج (سنة ٢١٣هـ) وهو صالح بن شيرزاد «ظلم الناس وزاد عليهم في خراجهم فانتقض أهل أسفل الأرض وعسكروا»[١].

وعندما رجع أبو إسحق تجدد الإضطراب فأرسل المأمون الأفشين سنة ٢١٥هـ فقضى على الفتنة.

ولكن مصر لم تهدأ فقد قامت ثورة عظمى سنة ٢١٦هـ ٨٣١م وكانت عنيفة في المناطق الزراعية المكتظة بالسكان في مصر السفلى، واشتركت جماهير القبط مع العرب فيها محتجة على سياسة العباسيين المالية وعسف جباتهم. فيروي المقريزي «فانتقضت أسفل الأرض (مصر السفلى) عربها وقبطها في جمادى الأولى (٢١٦هـ) وأخرجوا العمال لسوء سيرتهم وخلعوا الطاعة»[٢]. فاضطر المأمون إلى القدوم بنفسه لضخامة هذه الثورة وخطورتها، وكان على جيشه الأفشين فتغلب على الثوار وسبى قسماً كبيراً من القبط. ويروي اليعقوبي خبراً طريفاً يلقي ضوءاً على سياسة المأمون، فيذكر أن الخليفة استفتى فقيهاً مالكياً في معاملة الثوار، فقال الفقيه «إن كانوا خرجوا لظلم نالهم فلا يحل دماؤهم وأموالهم» فقال المأمون «أنت تيس ومالك أتيس منك! هؤلاء كفار لهم ذمة إذا ظلموا تظلّوا إلى الإمام وليس لهم أن يستنصروا بأسيافهم ولا يسفكوا دماء المسلمين في ديارهم»[٣]. وهكذا يعترف المأمون بوقوع الظلم إلا أنه لا يرى مسوغاً للثورة. ثم أخذ المأمون رؤساء الثورة إلى بغداد، وعزل عامل الخراج «ونسب الحدث إليه وإلى عماله»[٤] مما يبين أن أساس هذه الثورة مالي.

المأمون والبيزنطيون

شغل المأمون بمشاكله الداخلية عن متابعة الحرب مع البيزنطيين، فلما كان المحرم سنة ٢١٥هـ مارت ٨٣٠م غزا الصائفة بنفسه وفتح حصن قرة وحصن شمال (صملة) وأخضع سندس وحصن سنان وحصن ماجدة[٥]. ثم رجع إلى دمشق ومنها إلى مصر.

ولكن الروم استغلوا انشغال المأمون بمصر فأغاروا بقيادة تيوفيل بن ميخائيل على طرسوس والمصيصة «وأثخنوا فيهم القتل»[٦]. فسار المأمون إليهم في جمادى الأولى

---

(١) المقريزي ج ٢ ص ٩٩ ـ ١٠٠.
(٢) المقريزي ـ الخطط ج ٢ ص ١٠٠.
(٣) اليعقوبي ج ٣ ص ١٩٢ ـ ٣.
(٤) المقريزي ج ٢ ص ١٠٠.
(٥) الطبري ج ١٠ ص ٢٨٠ الذهبي ج ١ ص ١٠١ المعارف لابن قتيبة ص ١٧١.
(٦) ابن خلدون ج ٣ ص ٢٥٦.

وأخضع هرقلة وافتتح حسب رواية اليعقوبي إثني عشر حصناً وعدة مطامير[1] بينما يجعلها الطبري ثلاثين حصناً ومطمورة (نقطة محصنة)[2]. فأرسل تيوفيل رسالة «سأل أن يقبل (المأمون) منه مائة ألف دينار والاسرى الذين عنده وهم سبعة آلاف أسير وأن يدع لهم ما افتتحه من مدائن الروم وحصونهم ويكف عن الحرب خمس سنين فلم يجبه إلى ذلك وانصرف»[3].

وفي السنة التالية (٢١٧هـ) إفتتح المأمون حصن لؤلؤة وأمر ببناء الطونة. وأرسل إليه تيوفيل رسالة يطلب الصلح جاء فيها «وقد كنت كتبت إليك داعياً إلى المسالمة راغباً في فضيلة المهادنة لتضع أوزار الحرب عنا ونكون كل واحد لكل واحد ولياً وحزباً، مع اتصال المرافق والفسح في المتاجر وفك المستأسر وأمن الطرق والبيضة. فإن أبيت.. فإني لخائض إليك غمارها». فأجاب المأمون بالتهديد خاتماً رسالته بالعبارات الآتية «غير أني رأيت إن أتقدم اليك بالموعظة التي يثبت الله بها عليك الحجة من الدعاء لك ولمن معك إلى الوحدانية والشريعة الحنيفة فإن أبيت ففدية توجب ذمة.. وإن تركت ففي تعيين المعاينة لنعوتنا ما يغني عن الإبلاغ».[4].

وفي سنة ٢١٨هـ حصن المأمون مدينة الطونة «وجعل سورها على ثلاثة فراسخ» وأتى بالقوات إلى العواصم من العراق وسورية ومصر. ويظهر أنه فكر بخطة جبارة لفتح بلاد الروم، فيروي اليعقوبي إنه «استعد لحصار عمورية وقال أوجه إلى العرب فآتي بهم من البوادي ثم أنزلهم كل مدينة أفتحها حتى أضرب القسطنطينية» وأنه رفض طلب إمبراطور الروم للصلح. ولكنه توفي عاجلاً على نهر البدندون podandus (قرب طوسوس)[5]. ومن هذا يتضح أن المأمون انتبه لغدر الروم المتواصل وإلى محاولاتهم إثارة الفتن ضد العباسيين خاصة في منطقة أرمينية وإلى اتصالهم ببابك ففكر بخطة واسعة المدى تقتضي فتح المدن وتأهيلها بالعرب لتثبت الفتوح، ثم ينقض بعدها على القسطنطينية ويقضي على البيزنطيين!.

عهد المأمون ووصيته

خلع المأمون أخاه القاسم من العهد بعد انتصاره على الأمين وكتب منشوراً بذلك في ربيع الأول سنة ١٩٨هـ[6]. وفي مرضه الأخير تجاوز ابنه العباس وعهد لأخيه أبي إسحاق

---

(١) اليعقوبي ج ٣ ص ١٩٢.
(٢) الطبري ج ١٠ ص ٢٨١.
(٣) اليعقوبي ج ٣ ص ١٩٢.
(٤) الطبري ج ١٠ ص ٢٨٣ ـ ٤ وكتاب المعارف ص ١٧١.
(٥) اليعقوبي ج ٣ ص ١٩٦، انظر دائرة المعارف الاسلامية، مادة «المأمون».
(٦) الطبري ج ١٠ ص ٢٠٨ ـ ٩.

المعتصم، وأوصاه بعدة أمور في وصية طويلة مجملها:

(١) تعضيد القول بخلق القرآن (٢) الإهتمام بشـؤون جمهور الرعيـة إذ يقول «ولا تغفل أمر الرعية، الرعية الرعية، العوام العوام فإن الملك بهم» وتقـديم مصلحة المسلمين على كل شيء والترفيـه عنهم وإنصاف القـوي من الضعيف (٣) والتعجيل بـالرجوع إلى العراق (لعل ذلك تلافياً للفتنة). (٤) والإهتمام بالثغور والعواصم وبمن فيها من المقاتلة (٥) والجد في محاربة الخرمية فيقول «والخـرمية فـاغزهم ذا حـزامة وصـرامة وجلد وأكنفـه بالأموال والسلاح والجنود من الفرسان والرجال فإن طالت مدتهم فتجرد لهم بمن معك من أنصارك وأوليائك» (٦) وأن لا يستوزر أحداً، وهذا نتيجة لتجارب المأمون المرة مع وزرائه (٧) الرفق بالعلويين «فأحسن صحبتهم وتجاوز عن مسيئهم واقبل عن محسنهم، وصلاتهم فلا تغفلها في كل سنة عند محلها»[1].

وأهمية هذه الوصية أنها تعطي خلاصة تجارب المأمون، ونظرته للسيـاسة الرشيـدة التي تحل بها المشاكل التي كانت تواجه الدولة في أواخر أيام حياته.

تقرير

ويمكن الآن تقدير شخصية المأمون وأثره، فقد كان منصورياً (أو مكيافلياً) في سياسة، بارعاً بأساليب الدعاية ويهتم كثيراً لها. وأبدى جداً وعزيمة في محاربة البيزنطيين وخطته الأخيرة تدل على بعد نظر واستقلال فكر. ولكن حكمه أدى إلى اختلال التوازن بين العرب والفرس من جديد، وساعد على انهيار التعاون بين العنصرين. ثم نرى ظاهرة جديدة وهي تدخل الخليفة في الجدل الديني وفرضه القول بخلق القرآن على الناس، وهذا هو بدء تدخل الخلفاء في قضايا العقائد العامة. ولا يخفى أثـر المأمـون في تشجيع الترجمة وتعزيزها. وفي عهده زاد تفسخ الدولة العباسية بتوليـة الطاهريين على خـراسان واستقلالهم عملياً فيها.

نهاية العصر العباسي الأول:

يمكن اعتبار حكم المأمون نهاية العصر العباسي الأول سياسيـاً وذلك للإعتبـارات الآتية:

١ ـ كان حكم المأمون نهاية فترة النفوذ الإداري والسياسي للفرس في جسم الدولة العباسية. وقد خلفتها فترة تفوق العنصر التركي.

٢ ـ وبعد وفاة المأمون بدأت سيادة العناصر العسكرية وأخذها الدور الرئيسي في

---

(١) شرحه ج ١٠ ص ٢١٤ ـ ٥.

تسيير دفة الدولة وتقرير سياستها بعد أن كانت تلك العناصر ثانوية أو مسيرة من قبل الوزراء والكتاب.

٣ ـ وبعد المأمون انتهى ذلك التعاون الوثيق بين الخراسانيين وبين العباسيين وبدأ دور نشوء الإمارات المستقلة في إيران، كالطاهرية والصفارية والسامانية، وهي تمثل تعاون الارستقراطية الفارسية مع الجماهير ضد العباسيين. وقد وصلت هذه الحركة الإنفصالية أوجها في ظهور البويهيين ثم دخولهم بغداد سنة ٣٣٤هـ. ولا شك أن استخدام العباسيين للفرس والتنكيل بأرستقراطيتهم كلما خشي نفوذهم وخيبة أمال الجماهير المتكررة كان له أثر في تقرب الأرستقراطية من الجماهير وظهور الإمارات.

٤ ـ وشهد حكم المأمون نهاية تلك الثورات العنيفة المسلحة للعلويين، وبدء دعاية سرية باسمهم وتوسعها التدريجي الذي أدى إلى قيام الدولة الفاطمية.

٥ ـ ثم إن نقل العاصمة إلى سامراء كان رمزاً لسياسة جديدة، وخرقاً للتقاليد العباسية التي كانت ترى في بغداد معقل السلطان العباسي.

ويمكن اعتبار خلافة المعتصم دور انتقال إلى العصر العباسي الثاني ولذا فهي تستحق البحث بتفصيل.

وتنقل محمد في عدة كور من خراسان كمرو وسرخس والطالقان أبيورد وكان يدعو إلى الرضا من آل محمد فتبعه «خلق كثير». ولكن حركته لم تكن منظمة ولا خطرة، فتمكن عبدالله بن طاهر أن يقبض عليه وأرسله إلى سامراء حيث سجن. ولا ندري تماماً كيف كانت خاتمة حياته[١].

وقد تكونت فرقة زيدية خاصة تعتقد بإمامته، كانت موجودة سنة ٣٣٢هـ «ومنهم خلق كثير يزعمون أن محمداً لم يمت وإنه حي يرزق وإنه يخرج فيملأها عدلاً كما ملئت جوراً»[٢].

وثار جعفر بن مهرجيش الكردي بين الموصل وأذربيجان وأرمينية، ويظهر أن ثورته كانت واسعة، ولكنها أخمدت[٣].

وفي سنة ٢٢٧هـ ثار أبو حرب المبرقع اليماني في فلسطين لأسباب شخصية. وألبس وجهه برقعاً لئلا يعرف، وأخذ يحرض الناس على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر «ويذكر السلطان فيعيبه». وبث دعوته فاستجاب له «قوم من الحراثين وأهل القرى وقال الذين استجابوا له هذا هو السفياني»[٤] ولما كثر أتباعه من العامة دعا أهل البيوتات «فاستجاب له جماعة من رؤساء اليمانية» قوم من أهل دمشق[٥]. وبلغ عدد أتباعه ما بين خمسين ومائة ألف رجل[٦]. وأرسل إليه المعتصم أحد قواده فطاوله حتى وقت الحصاد فتفرق أصحابه إلى مزارعهم وبقي في ألفين فهاجمه قائد المعتصم وأسره وجاء به إلى سامراء وكان المعتصم في مرضه الأخير فسجن في المطبق[٧].

وفي نفس السنة ثارت دمشق وطردت واليها الجديد، ولكنه أخمد الثورة بعد أن جاءته نجدة من العراق. وقد ذهب حوالي الألف من أهل دمشق ضحية الثورة[٨].

المعتصم والبيزنطيون

أمر المأمون سنة ٢١٧هـ ـ ٨٣٢م بتحصين مدينة طوانة Tyana لوضع حامية فيها وأرسل إبنه العباس في مايو سنة ٨٣٣م للإشراف على البناء، ثم توفي المأمون، فتوقفت الحرب مع البيزنطيين لانشغال المعتصم بمشاكله الداخلية، ولعله أخطأ حين أمر بهدم «ما كان أمر المأمون ببنائه بطوانة» وحمل ما قدر عليه من الأسلحة والمؤن منها وأحرق

---

(١) أنظر المسعودي ج ٤ ص ٨ ـ ٩، مقاتل الطالبيين ص ٣٨٢ ـ ٤.
(٢) المسعودي ج ٤ ص ٨، أنظر الأشعري ج ١ ص ٦٧.
(٣) التنبيه والاشراف ص ٣٠٨.
(٤) السفياني هو الرجل المنتظر حسب اساطير بني أمية.
(٥) العيون ص ٧٠ ـ ١.
(٦) الطبري ج ١١ ص ٦.
(٧) شرحه ج ١١ ص ٥ ـ ٦، العيون ص ٧٢.
(٨) الذهبي ج ١ ص ١٠٦.

الباقي. «وأمر بصرف من كان المأمون أسكن ذلك من الناس إلى بلادهم»[١]. وبذلك أفسد خطة حكيمة وضعها سلفه لضرب البيزنطيين.

وفي سنة ٨٣٥هـ هجم عمر أمير ملطية على الأراضي البيزنطية فقابله تيوفيل وانتصر عليه. وفي السنة التالية تقوت جيوش البيزنطيين بانضمام جماعة من الخرمية بقيادة نصر الكردي، وكانت الجيوش العربية منشغلة في حرب بابك، فهاجم تيوفيل أرمينية وقتل كثيراً من سكانها ثم رجع يجر وراءه كثيراً من العوائل الأرمنية.

وفي سنة ٨٣٧م عبر تيوفيل الحدود مرة ثانية نتيجة لإلحاح بابك الخرمي الذي ضايقته جيوش الخليفة فكتب إلى تيوفيل «يعلمه ان ملك العرب قد وجه عساكره ومقاتلته إليه.. حتى لم يبق على بابه أحد. فإن أردت الخروج فاعلم أن ليس في وجهك أحد يمنعك» آملاً أن يحول الخليفة بعض جيوشه لمقاومة الخطر الجديد فيخف الضغط عنه[٢].

ويبين المسعودي أنه كان مع تيوفيل «ملوك برجان والبرغر (البلغار) والصقالبة وغيرهم ممن جاورهم»[٣]. وسمع الطبري أن عدد جيش تيوفيل كان مائة ألف، وأنه كان «معه من المحمرة الذين كانوا خرجوا بالجبال فلحقوا بالروم حين قاتلهم إسحاق بن إبراهيم بن مصعب، جماعة رئيسهم بارسيس[٤]. وكان ملك الروم قد فرض لهم وزوجهم وصيرهم مقاتلة يستعين بهم في أهم أموره إليه»[٥].

ونزّل تيوفيل على زبطرة Dozopetra فارتكب الفظائع فيها إذ قتل رجالها وأحرقها وسبى الذراري والنساء التى فيها. وكانت المذبحة عامة شملت اليهود والمسيحيين والمسلمين[٦]. ثم حاصر شمشاط Arsamosata وبعد أن هزم نجدة أتت لانقاذها، فتحها وأحرقها، وأعمل الخراب في أرمينية الصغرى وسبى كثيراً من أهلها. ثم تقدم على ملطية ولكنه لم يدخلها بل اكتفى بأخذ الرهائن والأموال وتراجع لأنه كان يتوقع هجوم العباسيين[٧]. وعلى كل فإن المصادر العربية تكثر من وصف فظائع تيوفل من قتل وتحريق وسبي وتمثيل في هذه الحملة[٨].

---

(١) الطبري ج ١٠ ص ٣٠٤ ـ ٥.

(٢) شرحه ج ١٠ ص ٣٠٤، العيون ص ٢٨ ـ ٩.

(٣) مروج الذهب ج ٤ ص ١٤.

(٤) C.M.H.IVp.129 يذكر اكراد نصر. كل الفقرات التي لا أرقام عليها تستند إلى هذا الكتاب إذا استفاد كاتب الفصل الخاص بهذه الغزوات من مصادر بيزنطية لا أستطيع الحصول عليها.

(٥) الطبري ج ١٠ ص ٣٣٤.

(٦) انظر الطبري ج ١٠ ص ٣٣٥، العيون ص ٢٨، C.M.H. Vol IV p.130، اليعقوبي ج ٣ ص ١٢٩.

(٧) C. M. H. Vol p. 129.

(٨) انظر العيون ص ٢٩، ابن العبري ص ٢٤٢، الطبري ج ١٠ ص ٣٣٥، المسعودي ج ٤ ص ١٤، الفخري يشير الى قصة الهاشمية في السبي ص ٢٠٩ بينما يذكر العيون امرأة صاحت وامعتصماه.

ووصلت أخبار مآسي زبطرة للمعتصم، فهالته، ودخل إبراهيم بن المهدي عليه وذكره بما نزل وحثه بقصيدة على الجهاد[١]. وضج الناس في الأمصار، فأسرع الخليفة بإرسال عجيف بن عنبسة وجماعة من القواد إلى زبطرة «إعانة لأهلها»[٢]. فلما سمع تيوفيل بقدوم عجيف، ترك ملطية واصطدم بالعباسيين، ومزق قوتهم الصغيرة[٣].

ويظهر أن خبر زبطرة وصل بعيد أسر بابك[٤] فأسرع الخليفة بإرسال عجيف ليستعد هو لحملة كبرى. ونادى بالنفير العام (٢ جمادى الأول ٢٢٣هـ) «وتعمم بعمامة الغزاة» وعسكر غربي دجلة ونصبت الاعلام على الجسر «ونودي الأمصار بالنفير.. فسارت إليه العساكر المتطوعة من سائر (بلاد) الاسلام»[٥]. ويبين الطبري أنه «خرج أهل ثغور الشام.. وأهل الجزيرة إلا من لم يكن عنده دابة ولا سلاح»[٦]. وكانت استعدادات المعتصم كبيرة فيقول الطبري «وتجهز جهازاً لم يتجهز مثله خليفة قط من السلاح والعدد والعدد والآلات وحياض الأدم والروايا والقرب والبغال والدروع والجواشن والزرديات وآلة النار والنفط»[٧].

ثم تحرك المعتصم من سامراء، يوم الخميس ٦ جمادى الأولى ٢٢٣هـ نيسان ٨٣٨م وجعل أشناس على مقدمته[٨]. وكان جيشه ضخماً «فالمكثر يقول خمسمائة ألف والمقلل مائتي الف»[٩].

ويقترح بعض المؤرخين أن المعتصم قرر قصد عمورية وهو في سامراء[١٠]. الا إن الأرجح ان ذلك تم خلاله الحملة[١١]. ولما وصل المعتصم الى سروج Batnae أرسل الأفشين أمامه من (درب الحدث) وسار عامة جيشه الى طرسوس. وهناك قسم الجيش من جديد، فأرسل أشناس من الدرب Cilician Gates ثم تبعه بعد يومين. أو كان غاية الفرق

---

(١) المسعودي.

(٢) العيون ص ٣٠ الطبري ج ١٠ ص ٣٣٥.

(٣) C.M.H.IV p.129 بينما يذكر الطبري ان عجيفاً «وجد ملك الروم قد انصر الى بلاد» ج ١٠ ص ٣٣٥.

(٤) الطبري ج ١٠ ص ٣٣٥، العيون ص ٣٠ يقول: واتفق من لطف الله تعالى ان المعتصم ظفر ببابك الخرمي عند ورود الخبر بخروج ملك الروم ص ٣٠ ولا ادري كيف استنتج Brooks في C.M.H. بان خبر زبطرة وصل قبيل اسر بابك فهذا خطأ بين.

(٥) المسعودي ج ٤ ص ١٤.

(٦) الطبري ج ١٠ ص ٣٣٥.

(٧) شرحه، العيون ص ٣٠ ـ ١.

(٨) اليعقوبي ج ٣ ص ١٩٧٩.

(٩) المسعودي ج ٤ ص ١٤ ـ ١٥.

(١٠) يقول صاحب العيون ص ٣٠، والطبري ج١٠ ص٣٣٥ أن المعتصم سأل «أي بلاد الروم أمنع وأحصن، فقيل عمورية لم يعرض لها أحد من المسلمين منذ كان الاسلام وهي عين النصرانية.. وهي أشرف عندهم من القسطنطينية» فقصدها المعتصم.

(١١) انظر الفخري ص ٢١٠.

الثلاث أنقرة Ancyra .

واتبع الأفشين طريق سيواس Sebastea ليجتمع بجيش ملطية. ولما سمع المعتصم أن تيوفيل معسكر على نهر ألس Halys أمر أشناس أن ينتظهر. ولكن الأمبراطور سار لمقابلة الأفشين، فاشتبك الجيشان قرب Dazimon فكان التفوق للأمبراطور في البدء، ولكن المسلمين كروا بعد الظهر، كما أن الضباب والمطر الكثيف ولدا فوضى في الجيش البيزنطي ولم يستطع أكثره معرفة محل الأمبراطور فتفرقوا. أما تيوفيل فقد خاف خيانة أتباعه الفرس فهرب مع بعض أتباعه، بينما أشعل الباقون النيران ليخدعوا العرب وتراجعوا[6].

وأخليت أنقرة عند ورود خبر المعركة، وأمر تيوفيل بتركيز القوات كافة في عمورية Amorium تحت قيادة ياطس Aetius خال تيوفيل وحاكم ولاية Theme أناطوليا، بينما ذهب هو الى القسطنطينية لسماعه بخبر مؤامرة عسكرية ضده. وفي هذه الأثناء احتل أشناس قرة Corum، وبعد أن خرب Nyssa وسمع من اللاجئين بانكسار الأمبراطور دخل انقرة وهناك وافته جيوش المعتصم والأفشين.

وبعد تدمير انقرة تقدمت القوات العربية الى عمورية (وهي المدينة الرئيسية في ولاية أناطوليا ومسقط رأس والد تيوفيل) في ٢ آب. وكانت مقاومة البيزنطيين عنيفة فطال الحصار حتى دل أسير عربي كان قد تنصر (باسم Manicophagus واستوطن عمورية، على نقطة ضعيفة في السور فركز الهجوم عليها. وأخيراً وجد قائد تلك الجهة وندو[1] Boiditzes ان المقاومة لا تجدي فسلم للعرب، فدخلوا المدينة يوم ١٣ آب وانتقموا منها انتقاماً مروعاً[2]. وكانت الغنائم كبيرة لدرجة ان المعتصم «أمر.. لكثرة السبي والغنائم ان لا ينادى على السبي أكثر من ثلاثة أصوات، وكان ينادى على الرقيق خمسة خمسة وعشرة عشرة وعلى المتاع جملة واحدة»[3].

وكان تيوفيل قد أرسل قبل سقوط عمورية هدايا للمعتصم ورسالة يعتذر فيها عن مذابح زبطرة ويؤكد إنها حصلت ضد رغبته ويعد أن يبنيها ويرجع من سبي من أهلها وأن يطلق جميع الأسرى على أن يعقد الصلح، ولكن المعتصم رفض مقابلة رسوله حتى سقطت عمورية ولم تثمر المفاوضة شيئاً.

ويبين المسعودي أن المعتصم «أراد السير الى القسطنطينية والنزول على خليجها

---

(١) C. M. H. Vol IV p. 129-30، العيون ص ٣٢ ـ ٣، المسعودي ج ٤ ص ١٤ ـ ٥ يتحدث عن انتصار الأفشين ومقتل أكثر البطارقة وهزيمة الأمبراطور.

(٢) أنظر اليعقوبي ج ٣ ص ١٩٧.

(٣) أنظر التفاصيل في اليعقوبي، والمسعودي، والعيون ص ٣٩، وابن العبري ص ٢٤٢.

(٤) العيون ص ٤٠.

(٥) المسعودي ج ٤ ص ١٤ ـ ٥

في فتحها براً وبحراً»(٤). كما اضطرب تيوفيل على عاصمته لدرجة إنه أرسل الى البندقية والى ملك الأفرنج والى البلاط الأندلسي يطلب النجدة(١). ولكن الخليفة اطلع على مؤامرة في الجيش لقتله، ولمبايعة العباس بن المأمون؛ فأثناه ذلك عن عزيمته. وكان الباعث على تلك المؤامرة القائد العربي عجيف بن عنبسة الذي أغضبه سوء تصرف القواد الترك تجاهه، فسخط على المعتصم تقريبه لهم، وأقنع العباس بالسعي للخلافة(٢)، وبث الدعاية له سراً في الجيش ودبر مؤامرة اشترك فيها قواد عرب آخرون وحتى بعض الأتراك وأجل التنفيذ الى ما بعد فتح عمورية وعند توزيع الغنائم. ولكن المؤامرة اكتشفت، فنكل المعتصم بالمتآمرين أشد تنكيل(٣). ولعل أسوأ أثر للمؤامرة أنها زادت في حذر المعتصم من العرب في الجيش وزادت في تقريبه للأتراك واعتماده عليهم(٤).

واستمرت المناوشات بين العرب والبيزنطيين حتى سنة ٨٤١ ـ ٢م حين أرسل الأمبراطور البيزنطي هدايا الى الخليفة واقترح تبادل الأسرى. ولم يرض المعتصم بحصول الفداء رسمياً، ولكنه أرسل هدايا أكثر ووعد بأن يطلق ضعف عدد الأسرى المسلمين الذين يطلقون. وعلى هذا الأساس حصلت الهدنة(٥).

الاداريات

أ ـ الوزارة.

حصل بعض التصادم بين سلطة الوزير وبين قوة الخليفة، كما في حالة الفضل بن مروان أول وزراء المعتصم. كان الفضل كاتب المعتصم قبل الخلافة «وغلب عليه كثيراً» آنئذ، ولما توفي المأمون أخذ لسيده البيعة ببغداد فحفظها له، واستوزره «ورد أموره كلها إليه»(٦). وأصبحت منزلته عالية جداً حتى يقول الطبري «وحل من قلبه (المعتصم) المحل الذي لم يكن أحد يطمع في ملاحظته فضلاً عن منازعته ولا في الإعتراض في أمره ونهيه وإرادته وحكمه»(٧). ويقول صاحب العيون «فلما أفضت الخلافة الى المعتصم صار الفضل هذا صاحب الخلافة والأمر والنهي والدواوين بحكمه»(٨). ولكن الخليفة كان على الرغم من هذا التفويض يعتبره وزيره ومشاوره والمنفذ لأوامره ولذا كان التصادم حتمياً بين وزير

---

(١) فيليب حتي ص ٣٠١.
(٢) ويتهم المسعودي العباس بن المأمون بأنه «كاتب طاغية الروم» ج ٤ ص ١٥.
(٣) الطبري ج ١٠ ص ٢٤٣ وما بعدها، اليعقوبي ج ٣ ص ٢٠١ ـ ٢، العيون ص ٤١ ـ ٦.
(٤) فيليب حتي ص ٣٠١، ميور ٥١٧.
(٥) C. M. H., IV p. 130-I.
(٦) ابن خلكان ج ١ ص ٤١٤.
(٧) الطبري ج ١٠ ص ٣١٢.
(٨)) العيون ص ١٢.